سلسلة دراسات الفكر المهدوي 2

السُنن الاجتماعيّة ونهاية التاريخ

حركة البشريّة اتجاه الدَولة المهدويّة العالميّة

الشيخ سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

السُّنن الاجتماعيّة ونهاية التاريخ

حركة البشريّة اتجاه الدَّولة المهدويّة العالميّة

سلسلة دراسات الفكر المهدوي 2

السُّنن الاجتماعيّة ونهاية التاريخ

حركة البشريّة اتجاه الدَّولة المهدويّة العالميّة

الشيخ سامر توفيق عجمي

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: 2024 م- 1445هـ
◆ عدد الصفحات: 112 صفحة
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

الفهرس

مدخل 9

المبحث الأوّل 15

حقيقة السنن الطبيعيّة والإنسانيّة في القرآن الكريم

- أوّلًا: الظواهر الكونية والترابط السببيّ 15
- ثانيًا: قانون السببيّة العام والتوحيد الأفعالي 21
- ثالثًا: حرية الإرادة الإنسانيّة وصناعة التاريخ 27
- رابعًا: سنة الدّفع نموذجًا 32

المبحث الثاني 37

القرآن الكريم واكتشاف السنن الاجتماعيّة

- أوّلًا: تأكيد القرآن الكريم على ربانيّة السنّة التاريخيّة 37
- ثانيًا: أقسام السنن الإلهية وفق المنطق القرآني 39

المبحث الثالث 43

السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة العامة في القرآن الكريم

- أوّلًا: التغيير الاجتماعي وليد تغيير المحتوى الداخلي لأفراد المجتمع 43
- ثانيًا: المدد الإلهي الغيبي يرتبط بالمجتمع الصالح المُستغفر المستقيم القائم بالقسط 45
- ثالثًا: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في تحقق سنة المدد الغيبي ورفع سنة الهلاك 51

رابعًا: تحقيق الانتصار فرع الابتلاء والتمحيص والاختبار 54

المبحث الرابع 57

عوامل التغيّرات والتحوّلات الاجتماعيّة

أوّلًا: تعريف التغيّرات الاجتماعيّة وبيان خصائصها 57
ثانيًا: أنواع التغيّرات والتحوّلات الاجتماعيّة 59
ثالثًا: العوامل المؤثِّرة في التغيّر الاجتماعيّ 67

المبحث الخامس 73

الاستخلاف ودوره في صناعة التاريخ

أوّلًا: طبيعة مجتمع الخلافة في القرآن الكريم 73
ثانيًا: دور المُستخلَف في حركة التاريخ البشريّ 75

المبحث السادس 78

دور المثل الأعلى في حركة التاريخ نحو انتصار الحق والعدل

أوّلًا: المثل الأعلى يجسّد الغايات والأهداف 78
ثانيًا: المثل المنخفض وحركة التاريخ المعاكسة 81
ثالثًا: حركة الإنسانية نحو المثل الأعلى «الله سبحانه وتعالى» 83

المبحث السابع 87

السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة في القرآن المرتبطة بالدولة المهدويّة

أوّلًا: التاريخ البشري يتحرّك ضمن سنن تكون نهايتها 87
انتصار الحق على الباطل

ثانيًا: النظريّات حول مستقبل البشريّة 92
ثالثًا: الانتظار الحركيّ والانتظار التقاعسيّ 94

المبحث الثامن 97

الإيمان بالمهدويّة شعور فطري مجبول في داخل كلّ إنسان

أوّلًا: الفطرة: مفهومها ومؤشّراتها 97
ثانيًا: تطبيق مؤشّرات الفطرة ومعاييرها على القضيّة المهدويّة 100
ثالثًا: الإيمان بالمهدويّة والشعور بالأمان النفسيّ 103
رابعًا: الإيمان بالمهدويّة بين المفهوم والمصداق 105

لائحة المصادر والمراجع 109

■ مدخل: منهج استشراف نهاية التاريخ

يلاحظ الباحث في القرآن المجيد عند تتبّع آياته الكريمة التي تعالج القضايا المُتعلّقة بحركة الإنسان نحو المستقبل، أنّ الرؤية القرآنيّة للاجتماع البشريّ، تتمحور حول فكرة حتميّة أساسيّة، وهي أنّه يتحرّك قُدُمًا ليصل في نهاية التاريخ الذي نعهده إلى مرحلة ينتصر فيها الحقّ على الباطل والخيرّ على الشرّ انتصارًا ساحقًا، وينتشر التوحيد، والعدل، والإيمان بالإسلام ومدرسة أهل البيت عليهم السلام، في مشارق الأرض ومغاربها كافة، وتنهزم قوى الشرك والظلم والجور والطغيان والفساد... فلا يبقى لها ثمّة مكان على في أيّ بقعة جغرافيّة، بل وفي نفوس البشر. كما يلاحظ المُتتبِّع للنصوص الواردة عن النبيّ وأئمة أهل البيت عليهم السلام تأكيد الارتباط بين القائم عجل الله تعالى فرجه الشرف وإقامة دولته العالميّة وبين تلك الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن نهاية التاريخ وحتميّة انتصار الحقّ على الباطل وغلبة الدّين الإسلاميّ على الأديان كلّها والأيديولوجيات المختلفة.

ولا يخفى على القارئ الفطن، أنّ البحث عن نهاية التاريخ والدولة المهدويّة العالميّة من المسائل التي تدخل في خفايا عالم الغيب وأسراره، التي ستحصل في المستقبل المستور عن عقل الإنسان وحواسّه، فكلمة «الغيب» في اللغة العربية تدلّ على الاستتار، يُقال : غابت الشمس، إذا استترت عن العين، وتُستعمل كلمة «الغيّب» في كلّ غائب عن الحواسّ، وعمّا يغيب عن علم الإنسان، فيدخل في الغيب: كلّ ما لا يمكن أن يطّلع عليه الإنسان بواسطة الأجهزة الإدراكيّة المُتعارَفة، بحيث يحتاج إلى المعرفة به والاطّلاع عليه إلى قوة خارجيّة، تكشف له عنها، ومنها: المسائل المُتعلِّقة بنهاية التاريخ البشريّ وشكل المجتمع الإنساني في المستقبل.

وفي هذا السياق، نفهم ما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في تفسير قوله تعالى : ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين* الّذين يؤمنون بالغيب**﴾ (سورة البقرة، الآيات :1-3)، أنّ المقصود بـ «الغيب» هو « الحجّة الغائب المستور» و «قيام القائم أنّه حقّ»[1].

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير الآية، قال : «المتّقون شيعة عليٍّ (عليه السلام)، والغيب فهو الحجة الغائب»[2].

فمهما حاول الإنسان أن يضغط على عقله في التفكير بآفاق المستقبل ليستحضر الأحداث والوقائع التي ستحصل في وعاء ذلك الزّمان، لن يتمكَّن من الاطلاع عليها لأنّها من الغيب المستور عن علم الإنسان

1 - الحويزي، تفسير نور الثقلين، ج2، ص32.
2 - الصدوق، كمال الدّين وتمام النعمة، ج1، ص46.

وحواسه، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**﴾ (سورة الجن، الآية : 26)، فهذه الآية تفيد أنّ علم الغيب مطلقًا مختصٌّ بالله تعالى، من حيث إضافة العالميّة -في الآية- إلى الغيب، الذي هو اسم جمع محلّى بالألف واللام، «عالمُ الغيب»، وهو يدلّ على العموم والشمول لكلِّ فرد من أفراد مفرده، ومن حيث إضافة الغيب إلى نفسه تعالى بلحاظ ضمير الهاء الذي يعود عليه عزّ وجلّ «على غيبه»، وفي الوقت ذاته يستثني عزّ وجلّ في الآية التالية (الآية :27) ﴿**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾، وهذا الاستثناء يفيد أنّ الله تعالى يُطلِع من ارتضاه من الرسل وغيرهم على الغيب المختصّ به تعالى، فعلم الغيب لله تعالى بالأصالة وأوّلاً وبالذات وبالاستقلال، ويمكن لغيره عزّ وجلّ أن يعلم الغيب بتعليم من الله تعالى ثانيًا وبالعرض والتّبع، كما يخبرنا القرآن الكريم في مواضع عدّة بأنّ الله تعالى أوحى إلى نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلّم من أنباء الغيب، ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ (سورة آل عمران، الآية :44). ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا**﴾ (سورة هود، الآية :49).

والخلاصة التي نريد الوصول إليها في هذه المقدِّمة، هي: أنّه إذا أردنا الاطّلاع على الغيب واستشراف المستقبل في ضوء منهج يفيد الحجّة المُعتَبرة كالقطع بالنتيجة أو الاطمئنان إليّها، علينا باللجوء إلى ما يمكن استنباطه من القرآن الكريم من معارف غيبيّة، وإلى ما كشفه النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك من معارف غيبية عن مستقبل البشريّة بوحي من الله تعالى، وأيضًا إلى العترة الطاهرة من أئمة أهل البيت عليهم السلام الّذين

وهبهم الرسـول هذه المعارف الغيبيـة بالوراثة العلميّة بأمر من الله تعالى، بدءًا من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام واستمرارًا إمامًا عن إمام، وصولاً إلى القائم الحجة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فالواحد منّا وإن أمكنه فهم القرآن الكريم لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل باب فهم القرآن الكريم مفتوحًا أمام كلّ إنسان عارف باللغة العربية وقواعدها وأساليب التعبير فيها، ومحيطًا ببعض العلوم التي يحتاجها الإنسان في فهم النصّ الدّينيّ، لأنّه أنزله كتاب هداية وبيان، مُخاطبًا به الناس جميعًا، كما في تصدير آيات عدّة بخطاب : (يا أيها الناس) منها قوله تعالى : ﴿**يا أيّها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نورًا مبينًا**﴾ (سورة النساء، الآية : 174)، ولذا أمرنا الله تعالى بالتدبّر في القرآن ﴿**أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾ (سورة محمد، الآية : 24)، ولا معنى لأن يأمرنا الله تعالى بتدبر القرآن إذا كان باب فهم معانيه مُغلقًا أمامنا. لكن، ما تقدّم -أي فتح باب فهم القرآن أمام الناس- لا يعني أنّه بإمكانهم أن يستقلوا في فهم القرآن بنفسه دون حاجة إلى الاستعانة بالنبي وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم، فالقرآن نفسه يخبرنا أنّ أحد أهم وظائف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هو تعليم الكتاب، يقول تعالى: ﴿**هو الذى بعث فى الأميين رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾ (سورة الجمعة، الآية : 2)، وتواتَر بالمعنى الحديثُ النبويُّ الشريف : «إنيّ تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا

حتى يردا عليّ الحوض»[1]، فالتمسك بالقرآن إنمّا يضمن هداية الإنسان وعدم ضلاله عن الصراط المستقيم حال اقترانه بالتمسّك بالعترة الطاهرة، لأنّ القرآن حمّال أوجه ينفتح على أكثر من معنى، وله ظاهر وباطن، ولباطنه بطون، ﴿**ولا يعلم تأويله إلّا الله والراسخون فى العلم**﴾ (سورة آل عمران، الآية :7)، والراسخون في العلم هم محمد وآل محمد صلوات الله عليهم كما روي في أحاديث عدّة، منها: عن الإمام الصادق عليه السلام قال : «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله»[2].

فمثلاً قوله تعالى : ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله**﴾ (سورة الأنفال، الآية :39)، نزل أمرًا للنبي صلى الله عليه وآله وتكليفًا للمؤمنين بقتال الكافرين حتى تنتهى الفتن التي تفاجئ المسلمين كلّ يوم، حيث كان كفار قريش قبل الهجرة النبوية وبعدها إلى مدّة في مكّة المكرّمة يُلقون القبض على المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويعذبونهم، ويجبرونهم على ترك الإسلام، والرجوع إلى الكفر، وكان ذلك يسمى: «فتنة»، فغاية القتال هي هزيمة الكافرين، حتى لا يغترّوا بكفرهم، ولا يلقوا فتنةً يفتتن بها المؤمنون، ويكون الدّين كلّه لله عزّ وجلّ، لا يدعو إلى خلافه أحد. وإذا عدنا إلى منطق أهل البيت عليهم السلام ، فقدّ تأوّلوا هذه الآية بما يفيد كمال مصداقها وتمام انطباقها في زمن القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف. فالروايات تبيّن لنا أنّه ثمة عشرات الآيات التي نزلت في

1 - الحر العاملي، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، ج27، ص34.
2 - الكليني، الأصول من الكافي، ج1، ص213.

القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) تفسيراً أو تأويلاً أو تطبيقًا وجريًّا على المصداق أو تمثيلاً وتشبيهًا... وهي كثيرة جدًّا، منها : عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): «لم يجئ تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد سيرى من يدرك ما يكون من تأويل هذه الآية، ليبلغن دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) ما بلغ الليل، حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض»[1].

والنتيجة : إنّ فهم نهاية التاريخ والدولة المهدويّة العالميّة، يحتاج إلى مراجعة القرآن الكريم والتدبّر في آياته، مع الاستعانة بالأحاديث النبويّة وروايات المعصومين عليهم السلام، وذلك لأنّ استشراف المستقبل والاطلاع على الغيب لا يمكن أن يحصل إلاّ بواسطة الكشف الإلهي الواصل إلينا عن طريق القرآن والسنّة.

وبهذا يتبيّن الفارق الجوهري بين طريقتنا -نحن الّذين نعتقد بالقرآن والنبي وأهل البيت عليهم السلام- في فهم الصورة التي سيكون عليها المجتمع البشري في نهاية التاريخ، وبين طريقة غيرنا، كبعض علماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ في النظر إلى نهاية التاريخ، فطريقتنا تستند إلى حقائق ووقائع كَشف عنها عالِم الغيب سبحانه وتعالى ومن وهبهم علمًا من لدنه وأطلعهم على الغيب، بنحو نعتقد قطعًا أو بحجّة معتبرة بأنّ ذلك حاصل لا محالة، لأنّ الله تعالى لا يُخلِف وعده، أمّا طريقة غيرنا تعتمد على الانطباعات الشخصية والتحليلات الحدسيّة التي مهما حاولت أن تقترب من الحقيقة، لن تدخل إلى حرمها، بل في الحدّ الأقصى ستدور حول سورها الخارجي.

---

1 - العياشي، تفسير العياشي، ج2، ص56.

المبحث الأوّل:
حقيقة السنن الطبيعيّة والإنسانيّة في القرآن الكريم

إنّ الحديث عن السنن في القرآن الكريم جميل ومهمٌّ جدًّا، لأنّه يجعلنا نطّلع على بعض القوانين التي تحكم الكون المحيط بنا، وكذلك تُعرِّفنا على القوانين الاجتماعيّة التي تحكم حركة المجتمع الإنساني والتاريخ البشري، بنحو تمكِّننا من الوعي بحركة التاريخ والمشاركة في صناعته وإحداث التغيير المطلوب في صورة المجتمع البشري الذي نريد.

ولفهم حقيقة السنن في القرآن الكريم نطرح بعض الأفكار المختصرة.

● أوّلًا: الظواهر الكونية والترابط السببيّ

يرى العقل البشريّ عند التأمّل في آثار الوجود من حوله أنّ الله تعالى خلق هذا الكون ضمن قانون السببيّة العام ونظام العليّة، ومعنى السببيّة أنّ الظواهر الكونية في الطبيعة -مثلاً- ترتبط فيما بينهما ضمن نظام خاصّ، بحيث يؤثّر بعض هذه الظواهر في إيجاد البعض الآخر، بنحو تكون ناتجة عنه.

وقد أكّدت الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ الإرادة الإلهيّة اقتضت عموم نظام السببيّة في الكون، فعن الإمام جعفر الصادق

عليه السلام : « أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب، فجعل لكلِّ شيءٍ سببًا ...»[1].

وهذا النظام السببيّ بين الأشياء في الكون ليس نظامًا جزئيًّا نسبيًّا، بل هو نظام كليّ مُطَّرد، والمقصود بأنّه كليّ مطّرد أمران:

الأوّل: أنّه نظام عام يشمل كلّ شيء في هذا الكون، فليس هناك موجود ممكن الوجود ليس له علّة، ولذا تعتقد الفلسفة الإسلاميّة أنّه لكلِّ معلول علّة.

والثاني: أنّه ليس لكلِّ ظاهرة جزئية هنا علة جزئيّة هناك، بل ثمة قوانين عامة تحكم الجزئيات المتشابهة في هذا العالم، فمثلاً ليس علّة احتراق هذه الخشبة هي النار، أمّا علّة احتراق تلك الخشب فهي الملح، وعلة احتراق الخشبة الثالثة هي السكّر، وهكذا، بل النار علّة احتراق عامّة للخشب.

فهذا الكون محكوم للعديد من القوانين الفيزيائية كقانون الجاذبية وقانون الحركة وقانون التوسّع الكوني ... إلخ، وإذا أردنا أن نعطي أمثلة من واقع ما نعاينه ونشاهده في حياتنا الاعتياديّة، فنحن نتعامل مع النار على أنّها سبب للإحراق، فنقول: كلُّ نارٍ مُحرِقة، ولذا نرتّب الأثر العمليّ على رؤية النار، وهو اجتنابها، كي لا نحترق بها. وكذلك نعتقد أنّ الماء سبب لرفع العطش، فإذا شعر الإنسان منّا بالعطش، وأراد أن يرفع عطشه، لا بدّ أن يُقدِم على شرب الماء ... إلخ. وفي ضوء هذا الإيمان المُسبق

1 - الكليني، أصول الكافي، ج1، ص183.

بقانون السببيّة ترانا -مثلاً- لا نعتقد أنّ ظاهرة البرق أو الرعد تولد من الفراغ فجأة، بل ترتبط بظواهر أسبق منها، تكون ناشئةً عنها، كما اكتشف علماء الطبيعة أنّها التفريغ الكهربائي وفصل الشحنات الكهربائيّة عن بعضها، ونعتقد أنّ هذا المرض أو ذاك له سبب خاصّ به، ولذلك نلجأ إلى الطبيب ليكتشف سبب هذا المرض، وكذلك لهذا المرض دواء خاصّ به، فنتناول هذا الدواء الخاصّ وليس ذلك الدواء للشفاء من هذا المرض.

نعم، كثيراً أو أحيانًا، قد يجهل الإنسان أو العلماء أسباب بعض الظواهر الطبيعيّة، ولكن عدم العلم بشيء لا يدل على عدم وجود القوانين، إذ عدم الوجدان ليس دليلاً على عدم الوجود، فجهل الإنسان بالقوانين الحاكمة على عالم الطبيعة لا ينبغي أن يؤدِّي به إلى إنكارها، بل إلى نفي علمه بها، ومن ثمّ السعي إلى اكتشافها والمعرفة بها.

فهناك فرق بين وجود القانون أو العلاقة السببيّة بين شيئين في عالم الطبيعة واقعًا، وبين العلم بهذه العلاقة، فالجهل بالعلاقة بين شيئين لا يعني عدم وجودها واقعًا، وبالتالي هذه الفكرة هي التي تكمن وراء تحريك العلماء نحو البحث عن الأسباب وعلل الأشياء واكتشافها وتطوير العلوم وتنميتها وتقدّمها.

ونلاحظ أنّ القرآن الكريم يؤكّد على قانون الترابط العلّي والسببي بين الظواهر الطبيعية، وعلى سبيل المثال :

يقول تعالى : ﴿**الله الذى يرسل الرّياح فتثير سحابًا**﴾ (سورة الروم، الآية :48)، فهذه الآية أسندت إثارة السّحاب إلى الرّياح، فالرياح هي سبب في إثارة السحاب، وهذا ترابط بين ظاهرتين تشكل الأولى «الرياح» علّة

مؤثِّرة في إيجاد الثانية «إثارة السحاب».

ويقول تعالى : ﴿**وَأَنْزَلَ مِنْ السّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ**﴾ (سورة البقرة، الآية : 22) والباء في (أخرج به) للسببيّة، أي أخرج بسببه، والضّمير في: (به) يرجع إلى الماء، فيكون الماء سببًا لإخراج الثمرات، فهناك ترابط سببيّ بين «الماء» وبين «خروج الثمرات»، فالماء سبب وعلّة مؤثّرة في إيجاد الثمر.

ويقول تعالى : ﴿**وأرسلنا الرياح لواقح**﴾ (سورة الحجر، الآية :22)، فالرياح سبب في تلقيح بعض الأزهار بحيث تصبح هذه الزهرة لديها قابليّة التحوّل إلى ثمرة.

وهكذا عشرات الأمثلة في القرآن الكريم.

نعم، ليس من الضروريّ أن يكون القرآن هنا في مقام بيان العلّة التامّة للشيء، لأنّ السببيّة قد تطلق ويراد بها أحد أمرين:

الأول: العلّة التامّة المنحصرة، بمعنى أنّها تلك العلة التي تؤثِّر في وجود الشيء بنحو لا يشاركها غيرها في التأثير، ولا نعرف شيئًا في عالم الطبيعة له هذا النحو من العليّة.

فالنار هي سبب للإحراق، ولكنها ليست علّة تامّة لذلك، لأنّه من خصائص العلّة التامّة أنّها تؤثّر في وجود المعلول بغض النظر عن أي عامل آخر، أي تكفي العلة في حدّ نفسها في إيجاد المعلول، وهذا مختصّ في عقديتنا بالله تعالى، ﴿**إنّما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن فيكون**﴾ وذلك لأنّه ﴿**سبحان الذى بيده ملكوت كلّ شىء**﴾ (سورة يس، الآيتان: 82-83).

والثاني: العلة الناقصة، أي ذلك العنصر الذي له نحو تأثير في شيء آخر جزئيًّا، ولعلّه يكون هناك عناصر أخرى مؤثِّرة أيضًا، بغض النظر عن درجة تأثيرها.

يتحدّث العلماء عادة عن ثلاثة عناصر لا بدّ من توفّرها لتؤثِّر العلة أثرها في المعلول، فإذا أخذنا النار في الأمثلة السابقة، فهي ليست سببًا تامًّا وعلّة مستقلة للإحراق لأنّ النار تحرق بتوسّط الفيض الإلهي والإرادة الإلهيّة، والدليل على ذلك أنّه تعالى يستطيع أن يرفع هذه الرابطة السببيّة والعليّة بين النار والإحراق كما حصل مع النبيّ إبراهيم عليه السلام، حيث أمر الله تعالى النار أن تكون بردًا وسلامًا عليه، ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 69)، بل النار تسمّى باللغة الفلسفيّة : «مقتضي»، أي فيها اقتضاء وقابلية أن تكون مُحرِقة بإرادة الله تعالى، ولكن حتى مع ذلك لا تؤثِّر النار أثرها إلّا بأمرين:

أ. تحقّق الشرط.

ب. وارتفاع المانع.

فلو افترضنا أنّه هناك نار، ولكن الورقة بعيدة عن النار لمسافة مترين، فإنّ النار لا تؤثِّر أثرها في إحراق الورقة، لأنّه من شروط تأثير النار في الورقة هو قرب المسافة والالتصاق بينهما، فالالتصاق شرط لتأثير النار في إحراق الورقة، ولا بدّ من تحقّق هذا الشرط لتحرق النار الورقة.

وكذلك، لو افترضنا أنّه تحقّق الشرط وهو الالتصاق بين النار والورقة، ولكن كانت الورقة مبلّلة بالماء، فإنّها لا تحترق مباشرة إلّا بأن يجفّ الماء عنها، فالماء هو مانع من تأثير النار في إحراق الورقة، وكي تؤثِّر النار أثرها

في الإحراق لا بدّ من ارتفاع المانع الذي هو الرطوبة والبلل.

وفهم هذا القانون، أي قانون السببيّة العام، والترابط بين الظواهر الطبيعيّة، وعناصر العلة من المقتضي وتحقق الشرط وارتفاع المانع، تؤدّي دورًا مهمًّا جدًّا في فهم دور الإنسان في حركة التاريخ وعمليّة التحوّل الاجتماعي والتمهيد لدولة صاحب العصر والزّمان.

وذلك لأنّ قانون العليّة لا يختصّ بالظواهر الطبيعيّة، بل يشمل الظواهر الاجتماعيّة، فإنّ الظواهر الاجتماعيّة لا توجد عن طريق الصدفة والاتفاق، بل هي محكومة لسنّة السببيّة وقانون العليّة، والاقتضاء والشرط والمانع، فلو فرضنا أنّ هناك اقتضاء لظهور صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولكن الاقتضاء بنفسه لا يكفي في تحقق النتيجة، بل لا بدّ من وجد الشرط وارتفاع المانع، فالشرط مثلاً كوجود الأنصار والأعوان، وبالتالي إذا لم يُقدِم الناس على التمهيد بجعل أنفسهم من الأنصار والأعوان، يكون حجب الإمام عنهم بسببهم هم لا بسبب منه عجل الله تعالى فرجه الشريف، ولذلك قال المحقق نصير الدّين الطوسي في التجريد: «وجوده عجل الله تعالى فرجه الشريف لطف، وتصرّفه لطف آخر، وعدمه منّا»[1]، فالله تعالى حرم الناس من بركات ظهور الإمام بسبب عدم تحقيقهم للشرط ورفعهم للموانع التي تحول دون ظهوره، فلا يكون السبب في الحرمان هو الله تعالى ولا الإمام نفسه، بل تقصير الناس، وحينها عليهم السعي لتحقيق شرط الظهور ورفع موانع الظهور.

1 - الطوسي، تجريد الاعتقاد، ص 221.

وباختصار، القوانين الاجتماعيّة تشابه القوانين الطبيعية، فكما أنّه هناك مجموعة قوانين طبيعية تحكم العلاقة بين ظاهرتين -في الحدّ الأدنى- بحيث تكون الأولى سببًا في حدوث الثانية والتأثير فيها، وإذا اكتشف الإنسان هذه العلاقة السببيّة بين الظاهرتين، يستطيع أن يستشرف حصول الظاهرة الثانية عقب حصول الأولى نتيجة الترابط بينهما، وهكذا تساعد معرفة القوانين الطبيعية الإنسان على كيفية التعامل مع الظواهر الطبيعيّة والاستفادة منها، بما يخدم مصالحه ومن هنا استفاد من القوانين الطبيعية والفيزيائيّة في معرفة كيفية اختراع الطائرات والتحليق في السماء للوصول من مكان إلى مكان بسرعة فائقة وهكذا عشرات الاختراعات التي استثمر فيها الإنسان معرفته بقوانين الطبيعة لتحقيق أغراضه، كذلك حال القوانين الاجتماعيّة، فإنّها حاكمة على حركة المجتمع بتوسط الإرادة الإنسانيّة وتحقيق الشروط وارتفاع الموانع لتحقيق النتائج المطلوبة.

● ثانيًا: قانون السببيّة العام والتوحيد الأفعالي

يلاحظ المُتدبّر في الآيات القرآنية الكريمة السابقة وغيرها أنّ هذه السببيّة العامة بين الظواهر الطبيعية في الكون، إنّما تحصل في ظلّ حاكمية مبدأ الخالقيّة والتوحيد الأفعالي، بمعنى أنّه لا فاعل حقيقة في الكون ولا مؤثر في الوجود إلاّ الله تعالى، فقانون السببيّة والتأثير المُتبادل بين الظواهر الطبيعيّة لا يتناقض مع عقيدة الألوهيّة والتوحيد، لأنّ تأثير الرياح أو الماء إنّما هو بواسطة الإرادة الإلهية كما هو واضح في الآيات التي ذكرناها سابقًا «الله الذي يرسل» « فأخرج به»، أي أنّ الله هو الذي أخرج بالماء

الثمرات، فنظام السببية لا يعني أنّ الأشياء تؤثر في بعضها البعض على نحو الاستقلال، بل هي تابعة لمشيئة اللّه تعالى وإرادته.

فالقرآن الكريم مع اعتقاده بالتوحيد الأفعالي وبأنّه لا فاعل ولا مؤثِّر في الوجود إلاّ الله تعالى، إلاّ أنّه يعترف بوجود فاعِلين ومؤثِّرين في الوجود غير اللّه تعالى، ولكن فاعليتهم ليست مستقلة عن فاعليته تعالى، وإلاّ وقعنا في فخّ الشرك به عزّ وجلّ، فالذي يتنافى مع التوحيد الأفعالي هو القول بأنّ اللّه تعالى فاعل ومؤثِّر وأنّ غير اللّه تعالى كذلك فاعل ومؤثِّر بنحو مستقل عن الإرادة الإلهية، كما تجرّأ البعض وقال: لو جاز على الله العدم لما ضرّ ذلك العالم شيئًا، حيث اعتبر أنّ الله تعالى خلق الإنسان مُريدًا وفوَّض إليه الأمر، كما أنّه لا يضرُّ الساعةَ موتُ المُخترع لها بحيث تبقى تعمل بعد وفاته، وكما لا يضرُّ البناءَ موتُ البنّاء، كذلك حال الأشياء فإنّها تحتاج إلى الإرادة الإلهية حدوثًا لا بقاءً، فهي تستمر بالعمل من تلقاء نفسها، ولكن نحن نعتقد أنّ الأشياء كي توثِّر أثرها المطلوب منها تحتاج في كلّ آنٍ آنٍ إلى الفيض الإلهيّ، كحال القطع الكهربائيّة مثلاً إذا انقطع عنها التيار الكهربائيّ فإنّها تتوقّف عن العمل، فالأشياء لا تؤثِّر إلاّ بإرادة الله تعالى، فالقول بأنّ اللّه تعالى فاعل، وغيره تعالى فاعل بإذنه عزّ وجلّ فهذا لا يتعارض مع التوحيد بل هو عين التوحيد، لأنّ اللّه تعالى هو الذي أعطى الرياح هذه الخاصيّة في إثارة السحاب أو التلقيح وأعطى الماء هذه الخاصيّة في إحياء الأرض بعد موتها...

وهذه نقطة مهمّة أيضًا، في فهم مدى حضور المدد الغيبيّ الإلهيّ في صناعة أحداث التاريخ وإيجاد التحوّلات الاجتماعيّة، فإنّه كما سيأتي

قد يظنّ الإنسان أنّه يمكنه أن يستقل بإرادته الحرة في إحداث التغييرات المطلوبة في المجتمع، ولكن في ضوء هذه العقيدة يتضح أن أي عملية تغيير اجتماعيّ وإن كانت الإرادة الإنسانيّة لها دور فيها قطعًا، لكن ليست على نحو الاستقلال عن الإرادة الإلهيّة، وسيأتي مزيد تفصيل حول هذه النقطة، ولذا نوسِّع في تحليل هذه النقاط لما لها من انعكاس على فهم كيف أنّ الله تعالى حاضر في كلّ تفاصيل حياة الإنسان وصناعة تاريخه وإحداث التغيير المطلوب في المجتمعات بواسطة السنن والقوانين الاجتماعيّة كسنة الاستبدال والدفع والنصر والهلاك والإمهال والإملاء و...

وفي هذا السياق، ثمة شبهة خطيرة يطرحها البعض لا يمكن تجاوزها، وتحتاج إلى الجواب عنها، ومفاد الشبهة هو : أنّ إسناد هذه الحوادث إلى الله هي نتيجة عجز الإنسان عن تفسير الظّواهر الطّبيعيّة أو حتى الاجتماعيّة التي تحدث أمام عينيه، وحيث إنّه اليوم، تطوّر عقل الإنسان واكتشف بواسطة العلوم التجريبية العلاقات القائمة بين الظّواهر الطّبيعيّة وأسباب حدوثها، فارتفع جهله بها، وكذلك اكتشف بواسطة العلوم الاجتماعيّة وفلسفة التاريخ القوانين الحاكمة على المجتمع، فعلى الإنسان والحال هذه أن يتحرّر من العقائد الخرافيّة الموروثة التي تعارض العلوم الطبيعية والاجتماعيّة، ولا بدّ من ارتفاع الاعتقاد بالإله أو حضوره في صناعة الأحداث تبعًا لارتفاع الجهل وسيادة المنطق العلمي والاجتماعيّ والتاريخيّ، لأنّه كلّما تقدّمت العلوم خطوة إلى الأمام في اكتشاف أسباب الظواهر الطبيعية والاجتماعيّة والتاريخيّة ينبغي أن يتراجع الإله خطوة إلى الوراء، فالإله هو الشماعة الذي يُعلِّق الإنسان جهله بالأشياء عليها

فينسبها إليه، لكن عندما يكتشفها ويعرف بها ينبغي أن يتخلّى عن فكرة الإله وتأثيره.

والجواب عن هذه الشبهة، ووجه الضعف والحمق في هذا التصور الذي تطرحه، يكمن في ثلاثة نقاط :

الأولى: أنّه لو كان ما تطرحه هذه الشُّبهة صحيحًا، لكان ينبغي أن يكون المجتمع الأكثر إيمانًا باللّه تعالى هو المجتمع الأكثر جهلاً، فأينما يوجد الجهل يوجد التديّن، بينما المسألة على عكس ذلك تمامًا، حيث نلاحظ أنّ الاعتقاد بوجود اللّه تعالى أكثر انتشارًا عند الفلاسفة والعلماء حتى علماء الطّبيعة والفيزياء الحديثة والفلك و... فلماذا هؤلاء الفلاسفة والعلماء المتديّنون لا يرون أدنى تعارض بين نسبة ظاهرة طبيعية معيّنة إلى سببها الخاص وبين الإيمان بأن الله هو مسبِّب الأسباب، بل يبصرون بين ذلك تمام الوفاق والانسجام.

الثانية: أنّ التجربة تشهد أنّه كلما تقدّمت أبحاث العلوم التجريبية في اكتشاف أسرار الطّبيعة ودقّة تصميمها وإتقان صنعها، كلما تعمّق في نفس الإنسان أنّ هذا الاتقان والنظام والتصميم لا يصدر إلّا عن خالق مبدع عظيم عالم قادر، فيتقدّم العقل البشري خطوة إلى الأمام نحو الإيمان باللّه تعالى والاعتقاد بوجوده وكمال صفاته المنعكسة في الخلق، لا العكس. وكذلك كلّما تعمّق فهم طبيعة قوانين المجتمعات البشريّة وحركة التاريخ كلّما تعمّق الإيمان بالله تعالى ومدده الغيبيّ، إذ كيف لشخص مثل محمّد صلى الله عليه وآله وهو الطفل الذي تربّى يتيمًا ولم يتلقَ تعليمًا وتربيّة عند أحد، ولم يكن له تجربة في العمل

السـياسي وقيادة أي قبيلة أو مجتمع، والذي ولد في بيئة شرك وجاهلية، أن يحقّق هذا الانتصـار التاريخي في إيجاد تغيّر كبير في بيئته ومجتمعه لـولا العناية الإلهيّة والمدد الغيبيّ، وكيف لجماعة قليلة من المسـلمين المقاومة الإسـلاميّة في لبنان وفلسـطين بأسلحة بسـيطة أن تنتصر على معسـكرات كبرى بأسـلحة أكثر تطوّرًا لولا نصر اللـه ودفاعه عن الّذين آمنوا... إن دراسـة الكثير من التجارب النبويّـة وتجارب الصالحين تدلّ عـلى أنّ إحداث التغيير الاجتماعـي لم يكن فقط وليـد الإرادة البشريّة والذكاء الإنسـاني والاسـتعداد والثبات و... بل هو وليـد المدد الإلهيّ وتدخـل اللـه تعـالى في مجريات الأحـداث لتحقـق شروط طلبها من المسلمين وارتفاع موانع كما سيأتي شرحه بالتفصيل.

والثالثة: تدّعي هذه الشُّبهة وجود التعارض بين اكتشاف السّبب الماديّ لظاهرة طبيعيّة ما وبين الاعتقاد بأنّ اللّه تعالى هو سبب تلك الظاهرة، لأنّه إذا علم السـبب المادي بطل الاعتقاد بأنّ الله تعالى هو السـبب. ولذلك يقول الفيلسـوف الملحد جورج بولتزر : «إنَّ الدّيانـة لمّا كانت تتولَّد من الجهل فإنّها تُحِل محلّ التّفسيرات العلميّة تفسيراتٍ خياليّة، فتَعمل بذلك على ستر الواقع وإسدال السّتار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرّجل المتديِّن مُناوئًا لمبادئ العلم التي هي من عمل الشّـيطان، لأنه حريصٌ على أوهامه»[1].

ولذا اعتقدت الماركسـية أنّها قبضت على فهم التاريخ في ضوء النظرية

1 - بولتزر، أصول الفلسفة الماركسية، ج1، ص208.

الماديّــة الدياليكتيكيّة، ولكنها سرعان ما خــسرت خسرانًا مبينًا، وتبينَّ أنّها مجرد وهم حاكته مخيّلة ماركس وصديقه إنجلز.

في الحقيقــة، إنّ العقل البشري لا يرى تناقضًا في وجود ســببين لظاهرة ماديّــة معيّنة: **السّــبب الأول:** مادي محســوس، ككون النّــار علّة لارتفاع درجــة حرارة الماء ومن ثمّ الغليان، أو كــون القائد الناصح وتوافق الإرادة الاجتماعيّة سببًا في حدوث التغيير الاجتماعي المطلوب.

والسّــبب الثاني: غيبي، وهو القدرة الإلهية التي ســبّبت الأسباب بحيث يؤثر موجود في موجود آخــر بإذن اللّه تعالى، فاللّه تعالى هو الذي أعطى النّار ســببيّتها كي ترفع درجة حرارة الماء، كما تقدّم في قول الصّادق عليه السّــلام: «... أبى اللّــه أن يجري الأشــياء إلاّ بأســباب، فجعل لكلِّ شيء سببًا». وهو أمر يؤكّده القرآن الكريم والعقل السليم، لكن لا بمعنى تأثيرها على نحو الاستقلال، بل هي تابعة لمشيئة اللّه تعالى وإرادته.

فهذه الفكرة أيضًا من السّخافة بمكان، لأنه لا يوجد أدنى تلازم بين اكتشاف القوانــين الحاكمة على الطّبيعة والســنن التي يخضع لهــا الاجتماع البشريّ والتاريخ الإنســانيّ، وبين نقص الإيمان باللّه تعــالى، إذ الإيمان باللّه تعالى لا يُلغــي الاعتقاد بأنّ هــذا الكون يعمل في ضوء قوانــين طبيعيّة واجتماعيّة خاصّــة يمتلك الإنســان القدرة على اكتشــافها والوصول إليهــا، بل يمتلك الإنســان القدرة على حسن الاستثمار فيها إيجابًا من أجل إحداث التغييرات المطلوبة التي يتمكّن معها من خدمة أهدافه والوصول إلى آماله وطموحاته، وإن كان هذا لا يلغي أنّه يمكن للإنســان الاستفادة من هذه القوانين الطبيعيّة والاجتماعيّة في الســلب وتدمير الإنســانية والطبيعة كما هــو الحاصل غالبًا

حيث إن القوى الاستكباريّة توظّف هذه السنن في خدمة مصالحها للسيطرة على الشعوب والثروات والفساد في الأرض، فالعطاء الإلهي في هذه السنن ليس محظورًا على أحد، لأنّها أسباب ومسببات ماديّة جعلها بإرادته، لا علاقة لها بحسن النّية أو سوئها، فإن من سلكها سيصل حتى لو كان عن نيّة سيّئة، نعم قد تتدخل الإرادة الإلهية مباشرة كما ذكرنا لتحول بين السبب المادي والنتيجة المترتّبة عليه لمصالح يقدّرها الله تعالى في علمه، أو لتحقق شروط وارتفاع موانع، كما في نصرته تعالى للأنبياء والصالحين على قلتهم.

● ثالثًا: حرية الإرادة الإنسانيّة وصناعة التاريخ

إنّ الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان مُختارًا، يتمتع بحرية الإرادة، فهو إن شاء فعل وإن شاء ترك، وهذه الفاعلية البشريّة والإرادة الإنسانية التي تكون سببًا لأفعاله هي مخلوقة لله تعالى، فإرادة الإنسان وإن كانت سببًا لأفعاله، ولكنّها سببٌ مخلوقٌ من قِبَل اللّه تعالى، الذي هو مسبِّب الأسباب، إنّ عقيدة التفويض بمعنى أنّ الإنسان مستقل بالإرادة عن الإرادة الإلهية تتنافى مع التوحيد، كما أنّ عقيدة الجبر بمعنى أنّ الإنسان مسلوب الإرادة أمام الفعل والترك، تتنافى مع العدل الإلهي والحكمة الربانيّة، في حين أنّ القرآن الكريم والنبي وأئمة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين كشفوا عن منطق ثالث، كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين»[1]، فالله تعالى أكرم من أن يُكلِّف

1 - الكليني، الكافي، ج1، ص160، ح13.

الناس ما لا يطيقون، وأعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد[1]، وفي المحصّلة أنّ الله تعالى منح الإنسان تكوينًا القدرة على التحرّك في خط الحق والعدل وإحداث التغيير المطلوب للحياة الطيّبة ﴿**فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا**﴾ (سورة المزمل، الآية : 19)، أو السير على غير الطريق لا باتجاه الهدف المطلوب ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ (سورة الكهف، الآية: 29)، وقال تعالى : ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخّر**﴾ (سورة المدثرة، الآية :37) ... إلخ.

وقد فصّلنا الحديث في الشبهة السابقة وما تلاها من أفكار، لأنّها ترتبط ارتباطًا مباشرًا ببحث السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة في القرآن، وذلك لأنّه ثمة ثلاثة نظريات في هذا السياق :

أ. النظرية الأولى: تعتقد أنّ أحداث التاريخ وتحولاته وحركته من صنع الله تعالى، ولا مكان للإرادة الإنسانية فيه، فالإنسان مجرَّد عامل سلبّي في حركة التاريخ.

وقد استغلّت السلطة الأمويّة بدءًا من معاوية بن أبي سفيان وغيره من ملوك بني أميّة هذه النظريّة، وروّجت لها ونشرتها بين عموم المسلمين، من أجل تحقيق مجموعة أهداف، الأول: تقوم على أنّ هذا الملك وهذا التحوّل الاجتماعيّ الذي حصل عند المسلمين إنّما هو بإرادة إلهية، فالله تعالى هو الذي خطّط الأحداث بنحو توصل إلى أن يكون معاوية وبني أميّة هم الحكام على رقاب المسلمين، ولا شكّ في أنّ هذه النظريّة من

1 - مقتبس من نص رواية عن الإمام الصادق عليه السلام، المصدر نفسه، ح14.

موروثات الجاهليّة، فقد حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿**وَقَالَ الّذين أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا**﴾ (سورة النحل، الآية: 35)، والهدف الثاني هو غرس الروح الانهزاميّة في نفوس الناس أمام القضاء والقدر بمعنى أنّ الإنسان لا يمكن له أن يغيّر الواقع الاجتماعيّ لأنّه مكتوب عليه من الله تعالى منذ الأزل، وبذلك يحاصرون أي فكر ثوري ممكن أن ينهض عليهم تحت شعار القضاء والقدر.

روي أن معاوية بن أبي سفيان قال: «لو لم يرني الله أهلاً لهذا الأمر، ما تركني وإياه، ولو كره الله تعالى ما نحن فيه لغيَّره!».

قال أبو هلال العسكري: « إنَّ معاوية أوّل من زعم أنَّ الله يريد أفعال العباد كلّها»[1]. وعندما قتل معاوية الإمام الحسن عليه السلام وأراد تمهيد المناخ لخلافة ابنه يزيد لعنه الله، اعترض عليه عبد الله بن عمر ، فقال معاوية: «إنَّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ، وليس للعباد خيرة من أمرهم»[2]. وكذلك أجاب على عائشة عندما نازعته في هذا الاستخلاف

يقول ابن المرتضى: «ثمّ حَدَثَ رأيُ المُجَبّرة من معاوية وملوك بني مروان فَعَظُمَتْ به الفتنة»[3].

وقد كانت الثورة الحسينيّة في أحد مفاعيلها هي مكافحة لهذه العقيدة الوثنية، ومن الشواهد على ذلك أنّه الحوار الذي حصل بين زينب بنت علي عليهما السلام وابن زياد، فقد ذكر الشيخ المفيد ذكر الشيخ المفيد

1 - أبو هلال العسكري، الأوائل، ج2، ص125.
2 - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 1، ص 171 .
3 - ابن المرتضى، طبقات المعتزلة ، ص 6.

أنّه عندما أُدخِل عيالُ الحسين (عليه السلام) على ابن زياد، فدخلت زينب متنكّرةً، فسأل عنها، فقالت له بعض إمائها: هذه زينبُ بنتُ فاطمة بنت رسول الله. فأقبل عليها ابن زياد (لعنه الله) وقال لها: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم) وطهّرنا من الرجس تطهيراً، وإنّما يُفتضح الفاسقُ ويكذّب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله.

فقال ابن زياد: كيف رأيتِ فعل الله بأهل بيتك؟!

فقالت: ما رأيتُ إلاّ جميلاً، هؤلاء قومٌ كتب الله عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّون إليه وتختصمون عنده، فانظر لمن الفلجُ يومئذٍ، ثكلتك أمّك يابن مرجانة!!»[1].

فلاحظ منطق ابن زياد الذي يقوم على أنّ من فعل ذلك بأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم هو الله تعالى «فعل الله»... وهناك شواهد كثيرة على هذه المسألة، لسنا في معرض التفصيل فيها، ولكن يمكن مراجعة ما حصل بين معبد الجهنيّ والحجاج لعنه الله، حيث ثار معبد على ملوك بني أميّة لأنّه على حدّ قوله: «هؤلاء الملوك يسفكون دماء المؤمنين ويأخذون أموالهم ويقولون: إنّما تجري أعمالنا على قدر الله»، ولذلك عندما أسره الحجاج قال له: «يا معبد كيف ترى قسم الله لك؟!»... وقد قال الحجاج يومًا وقد قتل رجلاً لأجل إظهاره حبَّ عليٍّ

1 - المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج2، ص115.

عليه السلام: اللهم أنت قتلته، لو شئت منعتني منه[1].

فهـذه النظريّة تغرس الروح الانهزاميّة في الإنسـان أمام عمليات التغيير الثـوري الاجتماعيّ وصناعـة التاريخ، ولعل الانتظار السـلبيّ باعتقاد أنّ الأحداث تتحرّك تلقائيًّا وذاتيًّا بإرادة ربانيّة محضة هو من بذور هذا الغرس الفاسد.

ب. النظريـة الثانيـة: ترى أنّ اللـه لا يتدخّل في حركـة التاريخ بل هي صناعـة بشريّة محضة، فالإنسـان بإرادته الحرة هو المسـؤول عن صناعة التاريـخ وأحداثه وتحولاتـه، فهذه النظرية تعزل الله سـبحانه وتعالى عن حركة التاريخ البشري.

ت. النظريـة الثالثة: وهي التي نعتقد بها في ضوء المنطق القرآني، وترى أنّ الله تعالى خلق الإنسـان كائنًا حرًّا مختارًا مريدًا كما تقدّم، وأنّ الإرادة الإنسانية لها دور مهم في صناعة التاريخ وأحداثه وما يحصل فيه من وقائع وتحـوّلات، ولكنها تعتقد أيضًا أنّه لا يحصـل شيء في هذا الكون خارج الإرادة الإلهية بمقتضى التوحيد الأفعالي، ففي الوقت الذي يكون الإنسان فيه مختارًا صانعًا للتاريخ، يكون هذا الاختيار في ظل الإرادة الإلهية، فالله عزّ وجلّ بالمدد الغيبي يتدخّل في صناعة التاريخ وتغيير مجرى الأحداث التي تحصل فيه، وهذا المدد الغيبي على نوعين :

الأول: ما يكون على نحو النتيجة للفعل البشري والإرادة الإنسانية.

والثـاني: ما يكون بتدخّل إلهـي ابتدائي ومباشر بفعـل رحمته بالبشريّة

1 - انظر: الكوراني، جواهر التاريخ، ج2، ص227.

وفضله على الإنسان.

وينبغي التنبيه على أنّ طريقة القرآن في ربط التاريخ البشري بعالم الغيب، لا تعني عزل الإرادة الإنسانية، أو ربط الحوادث الاجتماعيّة بالله سبحانه وتعالى قاطعًا صلتها وروابطها مع بقية الحوادث والقوانين الموضوعية القائمة على الساحة الاجتماعيّة والتاريخيّة، بل القرآن الكريم يقرّر وجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخيّة، إلّا أنّها في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى، وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخيّة.

● رابعًا: سنة الدّفع نموذجًا

ولنأخذ على سبيل المثال سنة الدفع، في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (سورة الحج، الآية :40)، يمكن أن تكون في ضوء الطريقتين السابقتين، فتارة يكون الدفع بواسطة تدخل العنصر البشري بالقتال والجهاد لحفظ المجتمع من شرّ الأعداء الهادفين إلى هدم المعابد الدّينية والمساجد والمراقد المقدّسة وتدمير الشعائر الدّينية... كما يوحي به قوله تعالى: ﴿**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة البقرة، الآية :251). وفي حال الجهاد والقتال لا يكون الأمر مرتبطًا فقط بإرادة المقاتلين وجهدهم

المبذول وتدريبهم وقدراتهم القتالية ومعدّاتهم، بل يكون هناك مدد غيبي إلهي، ونعرض بعض النماذج من الآيات لتأكيد الرؤية القرآنية على كيفية التدخل الإلهي والمدد الغيبي في صناعة التاريخ وإيجاد التغيير المطلوب في الأحداث والوقائع، منها :

يقول الله تعالى : ﴿**قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ**﴾ (سورة التوبة، الآية :14).

﴿**ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الّذين كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة التوبة، الآية :26).

﴿**فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الّذين كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (سورة التوبة، الآية :40).

ويقول عزّ وجلّ : ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الّذين آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذين كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ سورة الأنفال۞ الآية :12. (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)** (سورة الأنفال، الآية :17).

﴿**إِذْ جَعَلَ الّذين كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ (سورة الفتح، الآية :26).

﴿**يَا أَيُّهَا الّذين آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ**

أَقْدَامَكُمْ﴾(سورة محمد، الآية :7).

فهـذه الآيات تؤكّد عامل تدخّل الملائكـة في تثبيت أقدام المجاهدين، وإنزال السكينة عليهم، وتأييدهم بالجنود، وتسديد رميتهم... من جهة.

ومن جهة أخرى : إلقاء الرعب في قلوب المعسكر الآخر وخزيه وهزيمته... كما في قوله تعالى أيضًا ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الّذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الّذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾ (سورة الأحزاب، الآيات : 25-27).

وقال تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الّذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**﴾ (سورة الحشر، الآية :2).

بل يتدخل الله تعالى في التصرف في نفوس المقاتلين ونفوس أعدائهم، فمثلاً يجعل أعداد الكفار في نظر المؤمنين قلّة، وقدراتهم ضعيفة حتى لا يشعر المؤمنون بالخوف من مظاهر القوة عند العدو فيهابوا ويتراجعوا. وكذلك يجعل الكافرين ينظرون باستخفاف إلى قدرات المجاهدين وإمكاناتهم، فيحسبونهم قلّة وضعفاء، فيؤثّر هذا الاستخفاف في سوء التقدير والتخطيط عند العدو، قال تعالى : ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ**

فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (سورة الأنفال، الآية :44).

ويتدخل الله تعالى في إرسال مدد غيبي من الظواهر الطبيعية كالرياح والمطر مثلاً : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الّذين آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذين كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (سورة الأنفال، الآيات :9-12)، ففي الليلة التي سبقت معركة بدر أنزل الله تعالى بفضل رحمته المطر على المسلمين «ما جعل الأرض تحت أقدام جيش الإسلام سهلة رطبة، فسهّلت لهم طريقة الحركة والتنقّل في الأرض، وإجراء المناورات اللازمة في الميدان، إضافة إلى التخلّص من آثار الغبار والتراب التي تعيق الحركة أثناء القتال وتُعمي الأعين وتضرُّ بالرؤية البصريّة. أما في معسكر الكافرين فقد كان المطر شديدًا، ممّا جعل الأرض تحت أقدامهم مُوحِلة غير مستقرة، فأعاق حركتهم ومناورتهم العسكرية، وكان ذلك عاملاً في هزيمتهم».

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاّ بُشْرَى لَكُمْ

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلّا مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الّذين كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ (سورة آل عمران، الآيات :123-126).

وفي معركة الأحزاب، كانت الرياح من عوامل نصر المجاهدين وهزيمة الكفار، قال تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الّذين آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ﴾** (سورة الأحزاب، الآية :9-10).

فبعد هذه الآيات، هل يبقى شكّ في أنّ المدد الغيبي يتدخّل في صناعة التاريخ والأحداث التي تحصل فيه؟! نعم، هذا لا يعني صحة النظرية الأولى، بل هذا التدخل الإلهي في كثير من الأحيان مشروط بمقدّمات اختيارية للإنسان مثل : الإيمان، لأن الله تعالى يدافع عن الّذين آمنوا، والصبر، والتقوى، والجهاد، وطاعة ولي الأمر، وإعداد القوة... إلخ من العوامل التي تتعلّق بالإرادة الإنسانية كمقدّمة للوصول إلى المدد الغيبي الإلهي على نحو النتيجة.

وبناء عليه، فيما يرتبط بموضوع المهدويّة إنّ الحصول على النتيجة المطلوبة لا يكون بالتدخل الإلهي المباشر الدفعي، بحيث لا يكون ثمّة مكان للإرادة الإنسانية، فالتاريخ البشري لا يتحرّك تلقائيًّا بإرادة إلهية مباشرة إلى ظهور المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف دون أن يكون للإنسان أي وظيفة ودور وفاعلية، وسيأتي توضيح هذه النقطة بالتفصيل.

المبحث الثاني:
القرآن الكريم واكتشاف السنن الاجتماعيّة

● أوّلًا: تأكيد القرآن الكريم على ربانيّة السنّة التاريخيّة

نلاحظ أنّ القرآن الكريم يؤكّد على ربانيّة وإلهيّة السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة، حيث نسبه إلى نفسه، يقول تعالى : ﴿**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا**﴾ (سورة الأحزاب، الآية: 62)، ﴿**وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**﴾ (سورة فاطر، الآية: 43).

يقول الشـهيد الصدر : «وهذا التأكيد من القرآن الكريم على ربّانية السنّة التاريخيّة، وعلى طابعها الغيبي، ستهدف شدّ الإنسان بالله سبحانه وتعالى، حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون . ويستهدف إشعار الإنسـان بأنّ الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية، والاستفادة من مختلف القوانين والسنن المتحكّمة في هذه الساحات لا يعنيـان انعزال الإنسـان عن الله تعالى ؛ لأنّ اللـه يمارس قدرته من خلال هذه السنن ، ولأنّ هذه السنن والقوانين هي إرادة الله، وهي ممثّلة لحكمة الله وتدبيره في الكون.

هذا المفهوم القرآني يُعتبر فتحًا عظيمًا للقرآن الكريم، لأنّ القرآن - بحدود ما نعلم - أوّل كتاب عرفه الإنسان ضمّ بين دفّتيه هذا المفهوم وكشف عنه، وأصرّ عليه، وقاوم بكل ما لديه من وسائل الإقناع والتفهيم النظرة العفوية،

أو النظرةَ الغيبية الاستسلامية لتفسير الأحداث. وحثّ الإنسان على أن يكتشف هذه القوانين، ويتعرّف عليها من أجل أن يكون إنسانًا فاعلاً، ومن أجل أن يتحكّم في هذه القوانين»[1].

فقد حثّ القرآن الكريم الإنسان على أن يبذل جهدًا في محاولة اكتشاف السنن الاجتماعيّة الحاكمة على حركة التاريخ البشري لإحداث التغيير المطلوب، ومحاولة الاكتشاف هذه تارة تكون بالتدبر في القرآن نفسه، لأنّه كشف للإنسان عن كثير من هذه السنن التي يمكن أن يستفيد منها كقواعد عامة لحركته في التغيير الاجتماعي على امتداد التاريخ.

وتارة أخرى، تكون بالتدبر في التاريخ والاجتماع البشري، ليكتشف الإنسان بنفسه بعض السنن الاجتماعيّة الأخرى.

قال تعالى : ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذين مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا**﴾ (سورة محمد، الآية :10).

﴿**فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (سورة الحج، الآيتان : 45-46).

فمن مجموع هاتين الآيتين وغيرهما، نفهم أنّ القرآن الكريم يقرّ أن للتاريخ البشري والمجتمعات الإنسانية قواعد وسنن وضوابط، بمعنى أنّ التاريخ ليس مجرد كومة من الأحداث القائمة على أساس الصدفة والنظرة

1 - الصدر، المجتمع والتاريخ، ص332.

العفوية، أو على أســاس النظرة الاستسلامية للقضاء والقدر الإلهيين دون أن يكون لإرادة الإنسان أي تأثير.

● ثانيًا: أقسام السنن الإلهية وفق المنطق القرآني

يتضح مما تقدّم، أن السنن الإلهية وفق المنطق القرآني على قسمين :

سنن كونية عامة تتعلق بنظام الطبيعة والكواكب والنباتات والحيوانات...

وسنن خاصة بالحياة الإنســانية، من حيث إنّ الإنسان يستطيع أن يحدِّد مصيره ومســتقبله وفــق إرادته، بحيث تكون النتائــج متفرعة عن مقدمات اختيارية يريدها الإنســان. دون أن يعني ذلك أنّ هذه الســنن مســتقلة في التأثــير، ســواء أكانت ســننًا طبيعية أم ســننًا إنســانية، فالســنة الطبيعية أو الإنســانية إنّما تؤثر فيما تؤثِّر فيه بإرادة الله تعالى، وهذه نقطة محوريّة في عقيدة التوحيد تقدَّم الحديث عنها بالتفصيل، وسنستفيد منها لاحقًا.

ولفهم معنى الســنة الإنسانية نشرح الفكرة بشيء من التفصيل، معالجين نقطتين:

1. الأولى: معنى السّــنة الإنســانية هي : أن يصدر عن فرد ما أو مجتمع ما مجموعة من الأفعال الإرادية والتصرفات الاختيارية، التي يترتّب عليها مجموعة من النتائج والأوضاع المســانِخة لها في حياتهم، إيجابًا أو سلبًا، فالإرادة الإنســانيّة الفرديّة أو الاجتماعيّة تؤثــر في النتائج، التي يعود أثرها على هذا الفرد أو ذاك أو هذا المجتمع أو ذاك، سلبًا أو إيجابًا.

2. والثانية: تنقسم السنن الإنسانية إلى قسمين : فردية واجتماعيّة

أ. أمّا القســم الأول: الســنن الفردية: فالمقصود بها أنّه ثمة قوانين وسنن

تتعلّق بالأفراد بما هم أفراد، أي أنّ حياة الفرد خاضعة لمجموعة سنن من حيث المقدِّمات والنتائج، فإذا صدر عن شخص ما سلوك معيّن، فإنّ هذا الفرد سيحصد نتائج أفعاله في الدنيا إن خيراً أو شرّا من سنخ العمل الذي يقوم به، فهناك سنة إنسانية عامة حاكمة على حياة الأفراد وهي أنّه : «كما تدين تُدان». وهذه السنة قد تكتشفها البشريّة بالتجربة، بحيث تلاحظ أنّ شخصًا ما يصدر عنه فعل معيّن كالسرقة أو الزّنا أو الغشّ ...، ثم يُلاحَظ في زمان لاحق أنّ هذا الشخص ذاته تعرَّض للسرقة أو الغش... ولكن هذه التجربة هي حدسية ظنيّة، في حين أن الوحي الإلهي كشف لنا عن أنّ هذه سنة واقعيّة متحقّقة في حياة الإنسان سواء في نفسه أو في عقبه.

نذكر بعض النماذج على ذلك :

1 - ورد في مجموعة من الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّ من أكل مال اليتيم ظلمًا، فإنّ الله تعالى سيعاقبه في الدنيا بأنّ يصنع في أموال أيتامه في عقبه أو عقب عقبه كما صنع هو في أموال يتامى الناس، وقد استشهدت الروايات على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾ (سورة النساء، الآية :9) فعن الإمام الصادق عليه السلام : «من ظلم يتيمًا سلّط الله عليه من يظلمه أو على عقبه أو عل عقب عقبه... إن الله عزّ وجلّ يقول : (وليخش الذين... الآية)»[1].

2 - في موضوع الزنا، ورد في بعض الروايات عن أبي جعفر (عليه

1 - الكليني، الكافي، ج2، ص322.

السلام) قال : «كان فيما أوحى الله إلى موسى (عليه السلام) : من زَنَى زُنِيَ به ولو في العقبِ من بعده. يا موسى، عفَّ يعفُّ أهلُك. يا موسى بن عمران، إن أردتَ أن يكثرُ خيرُ أهل بيتك، فإياك والزِّنا. يا موسى بن عمران، كما تُدين تُدان»[1].

3 - في بر بالوالدّين مثلاً، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : «برُّوا آباءكم يبرّكم أبناؤكم، وعفّوا عن نساء الناس تعفُّ نساؤكم»[2].

إلخ من عشرات الروايات التي تفيد هذا المعنى، وهي أنّه هناك سنة إلهية في حياة الإنسان أنّه: «كما تدين تدان»، وأن الأفراد يحصدون نتائج أفعالهم في الدنيا من سنخ الفعل الذي يقومون به.

ب. والقسم الثاني : السنن الاجتماعيّة: والمقصود بها القوانن العامة التي تتعلّق بالمجتمع بما هو مكوّن من مجموعة أفراد، فهي سنة غير متعلّقة بفرد ما بخصوصه، بل هي سنة تعمّ المجتمع بجميع أفراده المشاركين في الفعل أو الرِّضا به، بل قد تشمل غيرهم أيضًا، لأنّ هناك فتن لا تصيب الّذين ظلموا خاصّة مثلاً. والسنة الاجتماعيّة قد تكون إيجابية، ومعناها : أن يصدر عن المجتمع بما هو مجتمع بجميع أفراده أو غالبيتهم مجموعة من الأفعال التي تؤثر في إحداث التغيير المطلوب في الوضعيات الاجتماعيّة، والانتقال بها إلى وضعية أخرى، لخدمة أهدافه ومصالحه. وبخلافها السنة الاجتماعيّة السلبية، التي تؤدي إلى إحداث الأثر غير المرغوب فيه.

---

1 - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج20، ص355.
2 - الصدوق، الخصال، ج1، ص29.

وإذا تفحصنا السـنن الاجتماعيّة والتاريخيّة في القـرآن الكريم، نجدها على قسمين :

القسـم الأول: السـنن الاجتماعيّة العامة التي يتجاوز شمولها المجتمع المهدوي، وتنطبق على أيّ مجتمع يمُارس هذه السنن ويطبّق هذه القواعد.

والقسـم الثاني: السنن الاجتماعيّة الخاصة بالمجتمع المهدوي، بمعنى أنّها لا تنطبق إلّا على المجتمع المهدوي في آخر الزمان.

وفي النقطة الثانية، سـنطرح بعض النماذج من السنن الاجتماعيّة العامة في القـرآن الكريم، ونحـاول ربطها أيضًا تطبيقيًّـا بالتمهيد لدولة صاحب العصر والزمان.

وفي النقطة الثالثة، سـنطرح السنن القرآنية المرتبطة مباشرة حسب منطق الروايات بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

المبحث الثالث:
السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة العامة في القرآن الكريم

● أوّلًا: التغيير الاجتماعي وليد تغيير المحتوى الداخلي لأفراد المجتمع

يقول تعالى: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (سورة الرعد، الآية :11). ويقول عزّ وجلّ : ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ (سورة الأنفال، الآية :53).

هاتان الآيتان توضحان نقطتان مهمّتان :

الأولى: أنّه من القواعد والسنن الاجتماعيّة في حياة الإنسان هي أنّ حركة التغيير الاجتماعي -«لا يغيّر ما بقوم»- مرتبطة بحركة التغيير النفسي والأخلاقي والروحي للإنسان - «حتى يغيروا ما بأنفسهم»-، فإذا أراد أيُّ مجتمع أن يُحدث تغييراً في الأوضاع الاجتماعيّة، وينتقل من حالة الظلم والفساد والجور والطغيان إلى حال العدل والقسط والصلاح و... عليه أن يعمل على إحداث تغيير روحي وأخلاقي في المحتوى الداخلي لنفوس أفراده، وما لم يحدث التغيير الأخلاقي لن يحدث التغيير الاجتماعي المطلوب المرتبط به.

الثانية: أنّ عملية التغيير الاجتماعي بعد التغيير الأنفسي لا تحصل إلّا في ظلِّ الحفاظ على قاعدة التوحيد وأنّه لا فاعل ومؤثّر في الوجود إلّا الله

تعالى، ولذلك نسب الله تعالى التغيير في الآيتين إلى نفسه: «إن الله لا يغير»، «أن الله لم يك مغيرّاً»، كي لا تأخذ الإنسان العزة، ويعتقد أنَّ الفضل في عملية التغيير يُسند إليه وحده، بل هذه سنة إلهية تربط بين أمرين: إذا قام أفراد مجتمع ما بتحمّل مسؤولياتهم القيميّة، وعملوا على تغيير المحتوى الروحي الداخلي لأنفسهم، فإنّ التغيير في الأوضاع الاجتماعيّة والظروف الخارجية سيحصل بإرادة الله تعالى. وفي هذا تأكيد على ما تقدّم من محورية التوحيد وحضوره في السنن الاجتماعيّة كما في السنن الطبيعية.

وتجدر الإشارة، إلى أنّ إحداث التغيّر في الأوضاع الاجتماعيّة لا يكون على نحو الإيجاب فقط، بمعنى أنّ تغيير المحتوى الداخلي للإنسان قد يكون إيجابيًّا فتتغير الأوضاع الاجتماعيّة تبعًا له إيجابًا، ولكن قد يكون التغيّر الأنفسي سلبيًّا فتتغيّر الأوضاع الاجتماعيّة تبعًا له سلبًا، فمثلاً لو أنّ قومًا كانوا في نعمة ورفاه وصحة وأمان بسبب شكرهم لله تعالى على نعمه، ثم تبدّلت حالهم من الشكر إلى الكفران، فالله تعالى يغيرّ أوضاعهم ويُفقدهم الرفاه والصحة والأمان...

وهذا ما أكّدت عليه مجموعة من الروايات، منها عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام قال: «الذنوب التي تُغيرِّ النعم: البغي على الناس، والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف، وكفران النعم، وترك الشكر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾»[1].

1 - الصدوق، معاني الأخبار، ص270.

وإذا أردنا تطبيق هذه السنة القرآنية الاجتماعيّة على دور الإنسان في الانتظار والحركة المهدويّة، فللإرادة الإنسانية دورًا مؤثِّرًا وأساسًا في تعجيل الظهور أو تأجيله، والرسالة الواضحة هي : علينا العمل على تغيير محتوانا الداخلي بالتحلِّي بالفضائل الأخلاقيّة والتخلي عن الرذائل، في سبيل التمهيد للمجتمع المهدوي المطلوب، فكلَّما قام أفراد المجتمع الإيماني بإيجاد التحوّل المطلوب في محتواهم الداخلي، وتهذيب النفس، والالتزام بالأوامر الإلهية وفعل الواجبات، من الصلاة والصوم والحج والجهاد والخمس والزكاة وطاعة الوالدّين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي لأولياء الله تعالى والتبري من أعدائهم ... وترك النواهي والابتعاد عن المحرمات، كالزنا وشرب الخمر واستماع الغناء والغيبة والنميمة والكذب وعقوق الوالدّين وقطيعة الرحم... كلَّما كان المجتمع الإيمانيّ أقرب إلى تغيّر الأوضاع وتبدّل الأحوال وتهيئة البيئة الحاضنة لظهور القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

والعكس صحيح، كلّما ابتعد أفراد المجتمع عن تغيير محتواهم الداخلي كلما تأّخر ظهوره عجل الله تعالى فرجه الشريف.

● ثانيًا: المدد الإلهي الغيبي يرتبط بالمجتمع الصالح المُستغفر المستقيم القائم بالقسط

يؤكد القرآن الكريم في قراءته السننيّة على الربط الأكيد بين المجتمع الصالح، المؤمن، المستغفر، المستقيم، والمقيم للكتب الإلهية، وبين المدد الغيبي وتفجر الأرض بثرواتها وخيراتها وتفتح السماء ببركاتها، هذه

القراءة تستلزم تنشيط ثنائية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كعنصر مساهم في تكوين السنة الاجتماعيّة الإيجابية، بما يترتب عليها من نتائج للمجتمع الإيماني الصالح والمستقيم. ونعرض بعض الآيات بشكل مختصر، دون التوقف عند دراستها بالتفصيل، حيث في التأمل في دلالتها كفاية.

يقول تعالى على لسان النبي نوح عليه السلام: ﴿**فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا * يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا**﴾ (سورة نوح، الآيات :10-12).

فهذه الآية القرآن الكريمة توضح العلاقة بين أمرين، بحيث يكون الأول مقدِّمة لحصول الثاني على نحو النتيجة بالفيض الإلهي، فإذا حقّق المجتمع روحية الاستغفار في بنيته، بأن كان مجتمعًا يطلب المغفرة من الله تعالى، ويتوب من ذنوبه، يُرسِل الله سبحانه وتعالى السماء على هذا المجتمع مدرارًا ويمدده بالأموال والبنين ويجعل له جنات ويجعل له أنهارًا، وهذا يعني أنّ الخيرات الإلهية تحيط بهذا المجتمع من فوقه ومن تحته.

يعلّق العلامة الطباطبائي على الآية: «... لمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمات العامة، وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض، أي أنَّ هناك ارتباطًا خاصًّا بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونيّة المربوطة بالحياة الإنسانية وطيب عيشه ونكده»[1].

1 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص102.

ويقول تعالى : ﴿**ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾ (سورة الأعراف، الآية : 96).

وفي موضع ثان يقول عزّ وجلّ: ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقًا**﴾ (سورة الجن، الآية : 16).

وفي آية ثالثة يقول سبحانه وتعالى : ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**﴾ (سورة المائدة، الآية :66).

يقول السيد محمد باقر الصدر تعليقًا على هذه الآيات الثلاث : «هذه الآيات الثلاث تتحدث عن علاقة معيّنة هي العلاقة بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى وبين وفرة الخيرات وكثرة الإنتاج»[1].

فالآية الأولى تتحدّث عن سنة تربط بين إيمان المجتمع وتقواه من جهة وبين فتح الله تعالى عليهم أبواب البركات من السماء والأرض، وأنواع الخير الكثير كالأمن والرخاء والصّحة والمال والأولاد، وغير ذلك ممّا يتنعمون به من نعم الله تعالى، فافتتاح أبواب البركات مُسبَّب لإيمان أهل القرى جميعًا وتقواهم، أي أنَّ ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه، فإنَّ إيمان البعض وتقواه، لا ينفك عن كفر البعض الآخر وفسقه، وبذلك لا يرتفع سبب الفساد[2].

والآية الثانية تتحدّث عن السنة عينها، ولكن بصياغة أخرى، تربط بين

1 - الصدر، مقدّمات في التفسير الموضوعيّ للقرآن، ص57.
2 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص201.

استقامة المجتمع على الطريقة -والمراد بالاستقامة الثبات على طريقة الإسلام والإيمان وما تقتضيه- وبين إسقائهم ماءً غدقًا أي الكثير منه، والمستفاد من الآية هو كناية عن الخيرات والنعم.

والملاحظ في الآية، أنّ سبب زيادة النعمة هو الاستقامة والثبات والاستمرار على الإيمان، وليس أصل الإيمان، فالإيمان المؤقَّت لا يُظهِر هذه البركات، إذ قد تزلّ القدم في هذا الطريق، فيصاب الإنسان بالغفلة والغرق في مستنقع الملذات والشهوات والابتعاد عن الله تعالى[1].

والآية الثالثة كذلك الأمر، حيث تربط بين إقامة التوراة والإنجيل وبين الأكل من فوقهم ومن تحت أرجلهم. و»المراد بالتوراة والإنجيل: الكتابان السماويّان اللّذان يذكر القرآنُ أنَّ الله أنزلهما على موسى وعيسى عليهما السلام، دون ما بأيدي القوم من الكتب التي يُذكر أنّه لعبت بها يد التحريف. والظّاهر أنّ المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة إلى الأنبياء الموجودة عندهم، كمزامير داود الذي يسميه القرآن بالزّبور، وغيره من الكتب. والمراد بإقامة هذه الكتب: حفظ العمل العام بما فيها من شرائع الله تعالى، والاعتقاد بما بين الله تعالى فيها من معارف المبدأ والمعاد، من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف والكتمان والترك الصريح، فتشير الآية إلى الأثر العميق الذي يتركه الإيمان والتقوى - في الحياة الدنيويّة للإنسان، فتؤكِّد أنّ أهل الكتاب لو طبّقوا التوراة والإنجيل وجعلوهما منهاجًا لحياتهم وعملوا بكلِّ ما نزل عليهم من ربهم، سواء في الكتب السماوية السابقة أو

1 - الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج19، ص93.

في القرآن، دون تمييز أو تطرّف لغمرتهم النعم الإلهيّة من السماء والأرض.

فالمراد من إقامة التوراة والإنجيل هو العمل بالمبادئ السماويّة واتّباعهم لما بقي من التوراة والإنجيل الحقيقيّين في أيديهم في ذلك العصر، ولا يعني اتباع ما حُرِّف منهما والّذي يمكن معرفته من خلال القرائن.

فلو أقاموها تلك الإقامة، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والمراد بالأكل التنعّم مطلقًا، سواء كان بالأكل كما في مورد الأغذية أو بغيره كما في غيره، واستعمال الأكل في مُطلق التصرّف والتنعّم من غير مزاحم شائع في اللغة.

والمراد من فوقهم هو السماء، ومن تحت أرجلهم هو الأرض، فالجملة كناية عن تنعّمهم بنِعَم السماء والأرض، وإحاطة بركاتهما عليهم، نظير ما تقدّم في قوله تعالى: ﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض**﴾.

ومُجمَل القول هو: أنّ الآية تؤكِّد مرة أخرى هذا المبدأ الأساس، القائل: إنّ اتّباع التعاليم السماويّة التي جاء بها الأنبياء، ليس لإعمار الحياة الآخرة التي تأتي بعد الموت فحسب، بل أنّ لها - أيضًا - انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية الماديّة للإنسان، فهي تقوّي الجماعات، وتُعزِّز صفوفها وتُكثِّف طاقاتها، وتغدق عليها النعيم وتضاعف إمكانياتها وتضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن والاستقرار[1].

وبالتالي، يصبح من الواضح جدًّا، أنّ ما روي عن شكل المجتمع في

1 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج6، ص37. والشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج4، ص79.

زمن القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف من أنّه يسود العدل والقسط والخيرات والبركات والثروات و... كالروايات التالية :

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال : «تنعم أمتي في زمن المهدي نعمةً لم ينعموا مثلها قَطّ، تُرسَل السماء عليهم مدرارًا، ولا تدعِ الأرض شيئًا من النبات إلّا أخرجته، والمال كدوس»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : «... ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قَطْرَها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشّحناء من قلوب العباد، واصطلحت السّباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام، لا تضع قدميها إلّا على النبات، وعلى رأسها زبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه»[2].

فهذه الأحاديث وغيرها العديد ممّا يتحدّث عن صورة ذلك العصر حيث تستبشر الأرض بالعدل، وتعطي السماء قطرها، والشجر ثمرها، والأرض نباتها، وتتزين لأهلها، وتأمن الوحوش حتى ترتعي في طرق الأرض كالأنعام، ويقذف في قلوب المؤمنين العلم. فيومئذ تأويل الآية ﴿**يغنى الله كلًا من سعته**﴾ (سورة النساء، الآية :130) تسلط الضوء على وضع اجتماعيٍّ في زمن القائم محكوم لهذه السنة الإلهية في المجتمع الإنساني، ومرهون بأنّ يتحرّك أفراد المجتمع باتجاه تحقيق هذه الصفات من الإيمان، والتقوى، والاستقامة، وإقامة الشريعة وتطبيق تعاليم السماء...

والخلاصة، أنّ هذه الآيات تبين الارتباط السنني بين صلاح المجتمع

1 - ابن طاووس، الملاحم والفتن، ج1، ص146.
2 - الصدوق، الخصال، ص626.

وإيمانه وتقواه واستقامته من جهة، وبين الحياة الطيبة وفتح أبواب البركات والمـدد الغيبي الإلهي وتفتح الطبيعة عن كنوزها وخيراتها وتفجر الأرض بالثروات والرخاء.

وعلى الضفة المقابلة، ثمة آيات تبين العلاقة السـننيّة والارتباط بين فساد المجتمع وظلمه وفسقه وترفه من جهة، وبين الهلاك والدمار من جهة ثانية.

يقول تعالى: ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا**﴾ (سورة الكهف، الآية : 60).

﴿**فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة**﴾ (سورة الحج، الآية :45).

﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمّرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناها تدميرًا**﴾ (سورة الإسراء، الآية :16).

﴿**فبظلم من الّذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم**﴾ (سورة النساء، الآية :160).

﴿**مما خطيئاتهم أغرقوا**﴾ (سورة نوح، الآية :25).

فهـذه الآيات تربط بـين الخطيئة، والظلم، والفسـاد، والـترف... وبين الغرق، والحرمان من الطيبات، والتدمير، والهلاك.

● ثالثًـأ: أهمية الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر في تحقق سنة المدد الغيبي ورفع سنة الهلاك.

تعتبر فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عنصرًا مهمًا في صلاح المجتمـع وعدالته واسـتقامته، ولذا تكون ضروريّة في السـنة الاجتماعيّة بالمدد الغيبي ورفـع الهلاك، بينما ترك هذه الفريضة وتعطيلها يلعب دورًا

مهـمًّا في انحطاط المجتمع وفسـاده وظلمه... وهذا ما ركّـز عليه القرآن الكريـم في الكثير من الآيـات، نذكر بعض النماذج منهـا لتوضيح الفكرة بشكل شديد الاختصار.

يقول تعالى: ﴿**وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الّذين ينهون عن السوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون**﴾ (سورة الأعراف الآيتان :164-165).

فهذه الآية تبيّن الرابطة السـننيّة بين النهي عن السـوء والمنكر من جهة، وبين النجاة ورفع العذاب.

ويقول تعالى: ﴿**فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلّا قليلًا ممن أنجينا منهم واتبع الذى ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ (سورة هود، الآيتان : 116-117).

ويقول تعالى : ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الّذين ينهون عن السوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون**﴾ (سورة الأعراف، الآية :165).

فهاتان الآيتان كذلك، تبيّن الرابطة السننيّة بين النهي عن الفساد من جهة وبين النجاة. وكذلك بين صلاح أهل مجتمع ما وبين رفع الهلاك.

ويقول تعالى : ﴿**ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من**

الصالحين﴾ (سورة آل عمران، الآية: 114).

فقد فرّعت الآية الكريمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -كصفتين من صفات الأمة القائمة من أهل الكتاب بما يتضمنه هذا التعبير من معانٍ عميقة في وصف الأمة بالقيام- على الإيمان بالله والاعتقاد بالمعاد، كأصلين من أصول الدّين، ولم تشهد لهم بالصلاح إلاّ بضميمة ذلك.

كما أنزل الله تعالى عقابه بالأمم السابقة التي لم يتفاعل أفرادها إيجابًا مع هذه المهمة النبوية والوظيفة الاستخلافيّة، فلم يتحمّلوا مسؤولية الولاية الإيمانية، بنهي بعضهم بعضًا عن المنكر، فطردهم تعالى عن أبواب رحمته، مُعلِّلاً ذلك بتخليهم عن التناهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿**لعن الّذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواد وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون* كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**﴾(سورة المائدة، الآية :78).

يقول الشهيد مطهري حول الآية : «لقد أكّد القرآن كثيراً على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويُستنبط بوضوح من إحدى الآيات أنّ ترك هاتين الفريضتين عاملٌ مؤثِّر في انهدام أركان المجتمع، حيث ذكر فيها من علل بُعد الكفار من بني إسرائيل عن رحمة الله تعالى [هو] عدم التناهي عن المنكرات»[1].

وثمة روايات كثيرة تفيد هذا المعنى بوضوح، منها: عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن

1 - مطهري، المجتمع والتاريخ، ص204.

المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نُزعت منهم البركات، وسُلِّط بعضُهم على بعض، ولم يكن لهم ناصرٌ في الأرض ولا في السماء»[1].

الراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه

وتبقى نقطة أخيرة مهمة جدًّا، تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الرضا، فثمة آيات وروايات كثيرة تفيد أنّ الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، ولذا عاقب الله سبحانه وتعالى أممًا سابقة بسبب الرضا، بنسبة الذنب القائم به الفرد إلى الجماعة الراضية بفعله، ولم تأمره بمعروف أو تنهه عن منكر، وقد صنّف المحدّثون في موسوعاتهم الروائية بابًا خاصًا في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت عنوان : «باب وجوب إنكار المنكر بالقلب على كلِّ حال ، وتحريم الرّضا به ووجوب الرّضا بالمعروف»، فينبغي أن يكون لسان حال بل مقال كلُّ مؤمنٍ تجاه تارك المعروف وفاعل المنكر: (إنيّ لعملكم من القالين) (سورة الشعراء، الآية: 168) أي المبغضين.

ومن الروايات في هذا المجال: عن أمير المؤمنين عليه السلام : « الراضي بفعل قوم كالداخل معهم فيه ، وعلى كلِّ داخل في باطل إثمان: إثم العمل به ، وإثم الرضا به»[2].

وعنه عليه السلام: «أيُّها الناس! إنّما يجمع الناس الرّضا والسّخط، وإنّما عَقَرَ ناقةَ ثمود رجلٌ واحدٌ، فعمَّهم اللهُ بالعذاب لمّا عمّوه بالرّضا»[3].

1 - الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص398.
2 - الشريف الرضي، نهج البلاغة، حكمة :154.
3 - المصدر نفسه، ج2، ص181.

وإذا أردنا تطبيق هذه السنة الاجتماعيّة والتاريخيّة في القرآن الكريم على المجتمع المهدوي، الرسالة الواضحة لنا هي : علينا في سبيل التمهيد للمجتمع المهدوي القيام بالأفعال التالية : الاستغفار، الإيمان، التقوى، الاستقامة، إقامة القرآن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...

● **رابعًا: تحقيق الانتصار فرع الابتلاء والتمحيص والاختبار**

يقول تعالى : ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذين خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ (سورة البقرة، الآية :214).

تستنكر هذه الآية القرآنية الكريمة على مخاطبيها أن يأملوا في أن يكون لهم استثناء من سنن التاريخ، وتقول لهم : هل تأملون أن تحقّقوا النصر، وأنتم لم تعيشوا ما عاشته تلك الأُمم من ظروف البأساء والضرّاء، التي تصل إلى حدّ الزلزال على ما عبرّ القرآن الكريم؟![1]

فقبل الوصول إلى انتصار الحقّ على الباطل في المجتمع المهدوي، ستتعرض الأمة إلى المصائب والويلات والحروب والمآسي والزلازل الاجتماعيّة من أجل تحقيق هدفين:

الأول: الغربلة، حتى يميز الله تعالى الخبيث من الطيب. فعن الإمام الصادق عليه السلام فيما يتعلّق بالقائم عج الله تعالى فرجه الشريف: «لا

1 - الصدر، المجتمع والتاريخ، ص328.

بُـدَّ للناس من أن يُمحَّصوا ويُميَّزوا ويُغربلوا، وسـيخرج من الغربال خلق كثير»[1].

الثاني: مَنْح الأمة القدرة على التحمل والثبات والصبر والصمود لتكتسب القوة على المواجهة.

فالفـرد المُنتظِر للقائم عجل الله تعالى فرجه الشريف عليه أن يعرف أنّه سـيتعرّض للمصائب والولايـات والبلايا، وأمامها، عليـه بالتحلّي بالصبر والصمـود والثبات والقوة. فينبغي أن يجعل الإيمان بالمهدي الإنسـان لا يستسلم للبواعث النفسـيّة التي تدفعه نحو اليأس والإحباط، عندما يشعر بسـطوة القوى الاسـتكبارية المسـيطرة على العالم، فيحـسّ بضآلة فرصة إحـداث أيّ تغيير في الواقع العالمي، بل ينبغي أن يمنح الإيمان بالمهدي الإنسـان الشـعور بالقوة والعزيمة وصلابة الإرادة وأنّ إحداث التغيير في العالم ليس أمرًا ممكنًا نظريًّا فقط، بل هو أمر واقع، فلا يعيش حالة الهزيمة والانكسـار والشـعور بالضعف، لأنّه يعتقد يقينًا بأنّ عملية التغيير الكبرى للواقع العالميّ قادمة لا محالة.

ولكن، من شـديد أسف، أنّ بعض الأفراد الّذين شعروا بهيبة الاستكبار، وانكـسروا أمـام قوته، ويأسـوا مـن طول الانتظـار، أصابهم الإحسـاس باستحالة التغيير، وعاشوا الهزيمة، وتعمّقت لديهم الشكوك.

1 - الغيبة، النعماني، ج1، ص210.

المبحث الرابع:
عوامل التغيّرات والتحوّلات الاجتماعيّة

● أوّلًا: تعريف التغيّرات الاجتماعيّة وبيان خصائصها

التغيّرات الاجتماعيّة: هي مجموعة من العمليّات التي تؤدّي إلى إحداث التغيير المطلوب في المجتمع، حيث يتحوّل ذلك المجتمع من وضعية قائمة إلى وضعيّة ينبغي أن تكون قائمة.

وتتميّز هذه التحوّلات بأنّها تتعلّق بالمجتمع ككلّ وترتبط به كمركّب مجموعيّ، أي أنّها لا ترتبط بهذا الفرد أو ذاك، أو حتى بمجموعة صغيرة هنا أو هناك، فأي تحوّل يحدث في حياة مجموعة أفراد لا يُطلَق عليه اسم التغيّر الاجتماعيّ، فيختص هذا الاسم بالتحوّلات التي تؤدي إلى تغيير على نطاق واسع من الأفراد الّذين يرتبطون مع بعضهم البعض في إطار اجتماعيّ عام.

ومن خصائصها أيضًا: أنّها تشهد حالة من الاستقرار والثبات النسبيّ إلى مدّة زمنيّة ليست بالقصيرة، لأنّ تغييرها أيضًا يحتاج إلى وقت للتحوّل الجديد.

ومن خصائص هذه التحوّلات أنّها تارة تحدث عن طريق النشاط السلميّ دون أي صراع مسلّح، كعمليّة التحوّل التي أحدثها النبيّ صلى الله عليه وآله في المرحلة الأولى من الدعوة في مكّة المكرّمة، وأخرى

تحدث عن طريق استخدام القوّة والصراع المسلّح كعملية التحوّل التي أحدثها النبيّ صلّى الله عليه وآله في المرحلة المدنيّة، وعمليّة التحوّل التي أحدثتها النهضة الحسيّنية.

كما أنّه لا ينبغي الاشتباه بأنّه لا ملازمة بين التحوّل من وضعية إلى وضعية وبين الترقي والتقدّم الإيجابي، فإنّ عملية التحوّل قد تكون من الأحسن إلى الأسوء ومن التكامل إلى الانحدار، كعمليّة التحوّل التي حدثت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله في سقيفة بني ساعدة، وإقصاء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السّلام عن قيادة الأمّة الإسلاميّة.

ومن خصائص التحوّلات الاجتماعيّة أنّه لا تحدث بشكل دفعي، وإنّما بالتدريج شيئًا فشيئًا بمرور الوقت. نعم، تختلف التحوّلات فيما بينها من حيث السرعة والبطئ، فبعض التحوّلات قد تحدث بسرعة قياسيّة خلال أشهر مثلاً كما حصل في بعض الدول العربيّة خلال ما سمي بالربيع العربيّ، وهناك بعض التحوّلات التي تحصل خلال سنوات مديدة.

وكلّ عمليّة تحوّل اجتماعيّ حصلت في التاريخ، مهما بلغ اتّساعها، فإنّها تتميّز بأمور، نقتصر على اثنين منها:

الأوّل: أنّها لم تشمل جميع أنحاء الأرض، بل دائمًا كان هناك استثناءات لأقوام أو قبائل لم تشملها عمليّة التحوّل، فهناك إمبراطوريّات كبرى مرّت على التاريخ البشريّ، ولكنها لم تستطع أن تحكم العالم كلّه، بل بقيت ثمة مناطق هي خارج نفوذها وسيطرتها، أو بالحدّ الأدنى خارج عمليّة التحوّل الاجتماعيّ وإن كانت ترتبط بتلك الإمبراطوريّة من الناحية السياسيّة والإداريّة.

والثاني: أنّها انتهت في لحظة زمنيّة خاصّة، ثم ورثتها عمليّة تحوّل أخرى. فمثلاً معاوية بن أبي سفيان وورثته من ملوك بني أميّة أحدثوا تغييراً في طبيعة الأمّة الإسلاميّة وصورة المجتمع، ولكنّها انتهت مع أبي العباس السفّاح وبدايات تشكيل الدولة العباسيّة، ثم جاءت لحظة زمنيّة انهارت بها الدولة العباسيّة، وهكذا انهارت الدولة العثمانيّة ...

ولا شكّ في ضوء عقيدتنا، أنّه هناك تحوّل حصريّ ووحيد سيحصل في مستقبل البشريّة لن يكون خاضعًا لهاتين الميزتين، وهي الدولة المهدويّة العالميّة، فمن خصائصها أنّها على نقيض هذه التحوّلات الكبرى في التاريخ، وذلك لأنّها:

أوّلًا: ستشمل جميع أنحاء الأرض، بحيث لن يبقى هناك أي بقعة جغرافيّة غير خاضعة لنفوذ هذا التحوّل الجذري والممتد.

وثانيًا: أنّ هذا التحوّل ليس له مدّة زمنيّة ينتهي عنده بحيث يرثه تحوّل اجتماعيّ آخر، بل سيمتد هذا التحوّل ويحافظ على وجوده بصور مختلفة إلى قيام القيامة.

وثالثًا: أنّه سيكون آخر التحوّلات التي ستشهدها حياة الإنسان على الأرض فلا تحوّل بعده.

● ثانيًا: أنواع التغيّرات والتحوّلات الاجتماعيّة

أوضحت لنا التجربة البشريّة الممتدّة على طول التاريخ أنّه ثمة تحوّلات من ألوان متعدّدة شهدتها المجتمعات الإنسانيّة، نختصر البحث على ثلاثة منها، لعلّها يمكن تصنيفها أنّها أهمّ أشكال التحوّل وأنواعه، وهي:

أ. التغيّر الشكليّ: والمقصود به أنّ شكل المجتمع وصورته الظاهريّة تتحوّل وتتغيّر من حال إلى حال، فهناك مجتمعات بشريّة تكون صغيرة الحجم ومحدودة عدد الأفراد، ثمّ مع مرور الزمان يكثر أفراد هذا المجتمع بالتناسل، ويزداد عدد سكانه، أو العكس، قد تؤدّي الحروب أو الأمراض أو الظواهر الطبيعيّة إلى هجرة الكثير من أفراد هذا المجتمع أو ذلك فينقص عدد السّكان وتتغير صورته الاجتماعيّة، دون أن يكون لهذا التغيّر الشكليّ في عدد السكان أو نقيصتهم أي انعكاس على التغيّر الجوهريّ في عقائد المجتمع ومفاهيمه وقيمه وثقافته...

ب. التغيّر النسبيّ في عنصر أساس من عناصر المجتمع: كلّ مجتمع من المجتمعات البشريّة له عناصر عديدة يتكوّن منها، بمعنى أنّه لا نجد مجتمعًا من المجتمعات البشريّة يخلو من تلك العناصر، منها: الأسرة، فالأسرة وحدة اجتماعيّة صغيرة موجودة في كلّ المجتمعات البشريّة، ومنها: النظام الاقتصادي، فأيّ مجتمع من المجتمعات البشريّة مهما كان متخلّفًا له نظام اقتصاديّ خاصّ به، كأن يكون اقتصاد هذا المجتمع معتمدًا على الزراعة، أو الرعي، أو الصيد، أو... ومنها: طبيعة النظام السياسيّ الحاكم على هذا المجتمع أو ذاك، كالنظام الاستبدادي، أو الشورى، أو الديموقراطيّ، أو... ومنها: أساليب التثاقف والتربية والتعليم... إلخ. وقد يطال التغيّر الاجتماعيّ أحد هذه الأمور دون أن يشمل العناصر كلّها، فقد يتغيّر النظام الاقتصادي في مجتمع ما من الزراعة إلى النظام المختلط مثلاً، بحيث يصبح هذا المجتمع يعتمد على الزراعة والرعي والصيد، أو يصبح مجتمعًا يعتمد على التجارة غالبًا... إلخ، مع الحفاظ على

النظام السـياسي نفسه، وشكل الأسرة ذاتها، وأسـاليب التثاقف عينها من دون إحداث أي تبـدّل في العناصر الأخرى، أو حدوث تبدّل طفيف جدًّا يتناسب مع النظام الاقتصاديّ الجديد، فإنّه نادرًا ما يتبدّل أحد العناصر من دون أن ينعكس ذلك على العناصر الأخرى ولو بشكل طفيف، إلاّ أنّ هذا لا يعنـي تبدّل العناصر الأخرى، بل تحافظ على جوهرها غالبًا وإن حصل فيها ذلك التبدّل الطفيف.

ت. التغـيّر الأكثريّ: هو التحوّل الـذي يحدث في أغلب عناصر المجتمع وأكثرها، فلا يقتصر التغيّر على عنصر هنا كالنظام الاقتصادي أو هناك كالنظام السـياسيّ، بـل يطال التحوّل جوهر عنـاصر المجتمع أغلبهـا، فيتغيّر النظام الاقتصاديّ والسـياسيّ والاجتماعيّ والتربـويّ والأسريّ و...، وخير نموذج عـلى ذلك هو التحـوّل والتغيّر الذي أحدثته الدعوة النبوية للرسـول الأعظم صلّى الله عليه وآله، حيث إنّ النظام الأسريّ مثلاً -الذي كان قائمًا على الزواج من المحارم أو الجمع بين الأختين، ووأد البنات، وقتل الأولاد خشية إملاق، والتبنيّ... إلخ- قد تحوّل وتغيّر جذريًّا، فلم تعد تجد عربيًّا مسلمًا بعد نجاح الدعـوة النبويّة يتزوّج من أخت زوجته مثلاً أو امرأة أبيه، أو يئد ابنته، أو يقتل أولاده، أو يتبنّـى طفـلاً مع ما يترتّب على ذلك التبنّي مـن آثار، وكذلك تغيّر النظام الاقتصادي من نظـام قائم على تحليل الرّبا وأكل مال اليتيم والمقامرة والتجـارة بالمحرّمـات كالخمور ولحـم الميتة والدمّ والخنزيـر... إلى نظام اقتصاديّ آخر، وكذلك من نظام اجتماعيّ عنصريّ قائم على أسـاس الطبقيّة والاسـتعباد، إلى نظام اجتماعيّ آخر قائم على أساس أنّه لا فرق لأبيض على أسـود ولا لعربي على أعجميّ ولا لغني على فقير إلاّ بالتقوى...، ومن نظام

سـياسيّ وإداريّ قائم على أسـاس حكم القبيلة أو العشيرة إلى نظام سياسيّ قائم على حكومة النبيّ والخلافة ووجود دولة ممتدة الأطراف لها حاكم واحد وجيش واحد وتقسيمات إداريّة وبيت مال و... وكذلك من نظام حقوقيّ قائم على أسـاس بعض الأعراف والتقاليد الجاهليّـة التي تتعلّق ببعض المواقف، إلى نظـام حقوقيّ إلهيّ شـامل لكلّ أبعـاد الحياة ... فهذا النـوع من التغيّر ينطوي في داخله على التغيّرين السـابقين، فشـكل المجتمع وهويته وصورته تتغيّر، وكذلك جوهره في أغلب عناصره وأبعاده.

أمّـا قولنا في أغلب العناصر والأبعاد، لأنّـه يبقى أنّ هذا التحوّل يتّصف بصفتين:

الأولى: أنّـه تحـوّل يقتصر على المجتمع الذي يسـود فيه الإسـلام ولا يشمل المجتمعات الأخرى.

والثاني: أنّه تحوّل ليس له ضمانة استمرار التوافق بين السلوك والعقيدة، فإنّـه في زمـن النبيّ صلى الله عليه وآله كان هنـاك ضمانة معصومة لكون التحـوّل الذي يحدث عـلى يد النبيّ صـلى الله عليه وآله تحـوّلاً مطابقًا للعقيـدة والمفاهيـم القرآنيـة والإلهيّـة. وإن كان أيضًا ثمة أشـخاص في المجتمـع لم يحدث التحـوّل الأنفسـيّ في داخلهم وإنّمـا كان تحوّلهم شـكليًّا لجذب منفعة أو دفع ضرر، كالمنافقـين، فحتى هذا التحوّل يبقى هناك خروقات عديدة فيه.

هذا فضلاً عن أنّ ضمانة مطابقة التحوّل في العناصر مع العقيدة بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله قد تمّ اقصاؤها وهم علي وأولاده عليهم السّلام، ولذلك هو تحوّل في كثير من جوانبه غير مطابق مع الإسـلام كدين إلهيّ،

فقد ارتحل النبيّ (صلى الله عليه وآله) باذلاً جهده في توحيد الأُمّة[1]، مع ذلك، اختلف المسلمون بعد وفاته إلى فرقتين: الأولى تبنّت النصّ النبويّ على خلافة عليٍّ (ع)، وفرقة بايعت أبا بكر في ضوء مقاييس جاهلية. وكان المُترقّب بعد هذا الاختلاف، طروء حروب دامية بين الطرفين، لولا القيادة الحكيمة للإمام علي (ع) خصوصًا أنّ المنافقين كانوا يترصّدون تلك الفرصة كأبي سفيان حيث قال للإمام علي (ع): «ابسط يدك حتى أبايعك»، فزجره (عليه السلام) وقال: «والله ما أردتَ بهذا إلّا الفتنة، وإنّك والله طالما بغيت للإسلام شرًّا، لا حاجة لنا في نصيحتك»[2].

فرأى (ع) أنّ في مواجهة هذا الانحراف مفسدة أعظم من فوت الولاية الظاهريّة، يقول (عليه السلام): « فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكتُ يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى مَحْق دين محمّد (صلى الله عليه وآله وسلّم)، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أرى فيه ثلمًا أو هدمًا تكون المصيبة به عليَّ أعظم من فوت ولايتكم»[3].

فقام أبو بكر، ثم أقام مكانه عمر بن الخطاب، وتقلّدها بعده عثمان، ولكن عثمان ثار عيه الأنصار والمهاجرون وذلك بسبب:

1. تعطيل الحدود الإلهيّة، كحادثة عدم إجرائه الحدّ على شرب الوليد بن عقبة الخمر، فقال الناس: «عُطِّلتِ الحدود وضُرِبت الشُّهود»[4].

---

1 - الأنبياء:92. وآل عمران: 103. والحجرات: 10.
2 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج2، ص326.
3 - الرضي، نهج البلاغة، الكتاب 62.
4 - السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 104.

2. عطاياه الهائلة لبني أُميّة من بيت المال، كإعطائه مروان بن الحكم خُمُس غنائم أفريقيا.

3. تأسيس حكومة من أخوته وأقاربه، حتى قيل إنّ خمسًا وسبعين من ولاته كانوا من بني أُميّة.

4. مواقفه العدائيّة تجاه الصّحابة، فقد سيّر أبا ذرٍّ إلى الرَّبذة، وأمر بضرب عبد الله بن مسعود، وضَرَبَ عمّار بن ياسر...

5. إيواؤه طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلّم)، أي الحكم بن عاص فردّه من الطائف إلى المدينة أيّام خلافته... إلخ.

أمام هذا المشهد، اجتمع المسلمون واحتجّوا عليه، فلم يستجب لهم، فانفجرت ثورة انتهت بقتله.

بعد قتله، اجتمع المهاجرون والأنصار في بيت عليّ (ع)، وطلبوا منه قبول الخلافة[1]. فقام عليٌّ عليه السلام بالخلافة، بهدف إرجاع الأمة إلى الإسلام وبسط العدل، فمثلاً قال في قطايع عثمان: «والله، لو وجدته قد تُزوِّج به النساء، ومُلِك به الإماء، لرددته، فإنّ في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق»[2].

فبلغ ذلك عمرو بن العاص، فكتب إلى معاوية: «ما كنت صانعًا فاصنع إذ قشرك ابن أبي طالب من كلِّ مال تملكه كما تُقشر عن العصا لحاها»[3].

وجاء طلحة والزبير إلى عليّ (ع)، وطلبا منه أن يوليَّهما، فقال: «لا أُشرِك

1 - الشريف الرضي، نهج البلاغة، الخطبة 229.
2 - نهج البلاغة، الخطبة 15.
3 - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج1، 270.

في أمانتي إلاّ مَن أرضى بدينه، وأمانته من أصحابي»[1].

وكان معاوية بن أبي سفيان يعلم أنّ عليًّا لا يُبقيه في ولاية الشام، فكتب إلى الزبير بن العوام: إنيّ قد بايعت لك أهل الشّام، فأجابوا، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك إليها ابن أبي طالب، وقد بايعتُ لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهر الطَّلب بدم عثمان...

ولمّا وصل هذا الكتاب إلى الزبير، أعلم به طلحة، فاغترّا بكلامه، وأجمعا عند ذلك على خلاف عليّ (ع)[2].

وكانت عائشة قد غادرت المدينة المنوّرة عندما حوصر بيت عثمان، ونزلت في مكة، ووصل إليها خبر قتل الخليفة واجتماع الناس على عليّ (ع)، فانصرفت إلى مكّة، وقالت: يا أيّها النّاس إنّ عثمان قد قُتِل مظلومًا والله لأطلبنّ بدمه[3].

ثم إنّ طلحة والزبير ارتحلا إلى البصرة، فخرج الإمام قاصدًا البصرة، وبعثَ (عليه السلام) إلى أبي موسى الأشعري يطلب منه استنهاض الناس في الكوفة، ولكنّه لم يَقُم بواجبه، فكتب (عليه السلام) إلى أبي موسى: اعتزلْ عملَنا يا بن الحائك مذمومًا مدحورًا، فما هذا أوّلُ يومنا منك، وإنّ لك فينا لهَنَات وهَنَات.

وانتهى عليٌّ إلى البصرة، وراسل القوم وناشدهم، فأبوا إلاّ قتاله، فقاتلهم في ما يعرف بموقعة الجمل.

---

1 - المصدر نفسه، ص 231 ـ 232.

2 - المصدر نفسه.

3 - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج1، ص49.

وكان معاوية يطلب من الإمام إقراره على ولاية الشَّـام، ولكن الإمام عليًّا لم يرضَ ببقائه، فكان (ع) يقول لمن يقترح عليه -كالمغيرة بن شعبة- ذلك: «لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدًا».

وبعـث الإمام جريـرًا إلى ولاية الشـام ليأخذ من معاويـة البيعة، ولكن معاوية شرط أن يجعل له الإمام الشـام ومصر، جباية، فإذا أحضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنق معاوية.

فلـما وصل كتاب معاوية إلى عليٍّ (ع) كتب إلى جرير: « أراد معاوية أن لا يكون لي في عنقه بيعة... فإن بايعك الرجل، وإلّا فأقْبِلْ».

فقام معاوية بن أبي سفيان -بعد أن أطمع طلحة والزبير في طلب الخلافة، وقـد قُتِلا خائبَيْنْ- في وجه الإمام تحت شـعار الثأر لعثمان، فصعد المنبر وجمع الناس، ونشر عليهم قميص عثمان، فبايعوه على الطلب بثأره[1].

... إلـخ من الأحداث التـي تدلّ على أنّه ثمة انقلاب على التحوّل الذي أحدثه الرسـول صلّى الله عليه وآله مـمّا أدى إلى تحوّل آخر في المجتمع الإسـلاميّ عمومًا، ولذا يفقد هذا التحوّل النبويّ بعده الشـمولي والثابت والمستقر والعام و...

هذه التحوّلات التي كانت السـبب في حرمـان الناس من لطف الإمام، واسـتمرّت شروطها وموانعها مع كلّ إمام إمام عليهم السـلام إلى أن أدّت إلى غيبـة الإمام الحجّـة عجل الله تعالى فرجه الشريف لاحقًا لاسـتمرار الشروط والموانع نفسها التي تحول دون حضور الإمام بين الناس.

1 - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص141.

ث. التحول الشامل المطلق: التحوّل الشامل المطلق هو الذي يشمل كافة عناصر المجتمع في شكله وجوهره، حتى نفوس البشر، وفي جميع بقاع الأرض، وعلى استمرار الزمان، وهو التحوّل الذي سيحدث في المجتمع المهدويّ، فهو في الحقيقة ليس من هذا القسم الثالث، ولذلك وصفنا ذاك النوع من التحوّل بأنّه أكثريّ، وليس مطلقًا وشاملاً، أمّا التحوّل المهدوي فهو لا يشبه أي تحوّل في التاريخ، ولا يشبهه أي تحوّل، ولذا هو يتّصف بالفرادة بمعنى أنّه تحوّل صرف لا يتثنى ولا يتكرّر.

● ثالثًا: العوامل المؤثِّرة في التغيّر الاجتماعيّ

النقطة الأولى الجديرة بالبحث عن العوامل المؤثرة في حركة التغيير الاجتماعي والتحوّلات التي تحدث في المجتمع، هي أنّ القبض على العوامل كلّها ليس أمرًا سهلاً بل يكاد يكون مستحيلاً عادةً، لأنّه كما تقدّم في الأبحاث السابقة أنّ النظام الكوني والطبيعي والاجتماعيّ قائم على أساس قانون السببيّة والعليّة، فكلّ مجموعة أسباب أو علل تنبثق عن علل أسبق منها وهكذا، ولذا لا يمكن رصد العلل البعيدة لعملية التحوّل الاجتماعيّ، وإنّما يستطيع الباحث عن يعالج الأسباب القريبة من الظاهرة والقابلة للرصد والملاحظة.

لذا، نقتصر على ذكر بعض العوامل المؤثّرة في التحوّل الاجتماعي:

أ. وجود القائد القويّ الموثوق: فالقائد هو الفرد القادر على إحداث مثل هذا التغيير في المجتمع، ولذا نلاحظ أنّ أي نهضة من أي نوع كانت تحتاج إلى قائد، سواء أكانت ثورة ثقافيّة، أو سياسيّة، أو اجتماعيّة...، وتاريخ

الثورات القديم والحديث في العالم شاهد على ذلك، كالثورة المحمديّة، والثورة الحسينيّة، والثورة الخمينيّة... في معسكر الحقّ، وكذلك ثورات معسكر الباطل كالثورة العباسيّة، والثورة البلشفيّة بقيادة فلاديمير لينين، والثورة الصينيّة بقيادة ماو تسي تونغ... إلخ.

فالقيادات على نوعين:

1. قائد هدى، يأخذ بيد الإرادة الاجتماعيّة للأفراد إلى الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة.

2. وقائد كفر وضلال، يقود الإرادة الاجتماعيّة للأفراد إلى الانحدار والانحراف والفساد.

لكن في المحصّلة، لا بدّ من وجود قائد للمجتمع، ولذا نلاحظ مثلاً أنّ الروايات ركّزت على أنّه «لا يصلح الناس إلّا إمام عادل وإمام فاجر، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ (سورة الأنبياء، الآية: 73)، وقال: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ**﴾ (سورة القصص، الآية: 41)»[1].

ب. الإيمان بالغاية وتحديد الهدف بشكل واضح: يتميّز الإنسان بأنّه كائن حكيم، أي أنّه يفعل عن وعي بالهدف، فلا يتحرّك إلّا إذا كان لديه هدف يسعى إلى تحقيقه، وكلّما كان هذا الهدف واضحًا ومحدَّدًا كلّما كان الإنسان أقدر على التحرّك نحوه وبالتالي تحقيقه.

ومن أهمّ صفات القائد الناجح في عملية التغيير الاجتماعيّ هو وضوح

1 - الصفار، بصائر الدرجات، ص53.

الهـدف، ولذا ورد في الأحاديث أنّه من عمل على غير علم كان ما يفسـد أكثر ممّا يُصلح، وأنّ العامل على غير بصيرة كالسـائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السيّر إلّا بعدًا[1].

ولذا نلاحظ أنّ القرآن ركّز على وضوح الرؤية عند رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ (سورة يوسف، الآية: 108).

وبالإضافـة إلى معرفة القائد بالهـدف، لا بدّ من أن يكون مؤمنًا به، فكم من القيادات التي تسـتغل الإرادة الشـعبيّة لإحداث تغيير ما دون الإيمان بالهدف!!

وكلّـما كان الهـدف واضحًا عند النـاس كلّما أقدمـوا وتحرّكوا بكامل إرادتهـم ووعيهم لخدمته وتحقيقه، وهذا بخلاف ما إذا كانت حركة الناس مع القائد عمياء لمجرّد الثقة به فإنّه قد يستغلّ جهلهم وحماستهم فيقودهم إلى ما لا يريدون.

والإمام الحجّة عجـل الله تعالى فرجه الشريف هو قائد هدى، كما ورد في الزيارة العاشـورائيّة: «... وأسـأله أن يبلغني المقام المحمود لكم عند اللـه ، وأن يرزقنـي طلب ثاركم مع إمامِ هدىً ظاهـر ناطق بالحق منكم»، تتجسّـد فيه كلّ صفات القائد الذي يصلـح أن يوصل البشريّة إلى الهدف الوجودي الذي خلقوا من أجله، وإلى الأحلام والآمال التي يسـعون إليها بفطرتهم بسيادة التوحيد والعدل والقسط والحقّ...

1 - الريشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص2093.

ت. توافق الإرادة الاجتماعيّة: نعتقد -كما تقدّم سابقًا- أنّ أي عمليّة تغيير لا تحدث صدفة ونتيجة تراكم الأحداث بشكل اعتباطيّ وجزافيّ، وإنّما تؤدّي الإرادة دورًا مهمًّا في التغيير الاجتماعيّ، وذلك لأننا نعتقد أنّ الإنسان كائن حرٌّ مختارٌ، فإذا توافقت إرادة أفراد المجتمع وانسجمت مع بعضها البعض في إحداث التغيير المطلوب فإنّ ذلك يكون عاملاً مساهمًا في التقريب من النتيجة التي يريد المجتمع الوصول إليها، فإذا اجتمعت إرادة أفراد المجتمع على تحوّل ما، ثم حدث هذا التحوّل فإنّه يكون وليد تلك الإرادة، ولذا من الصعوبة جدًّا أن يحدث التحوّل المطلوب مع عدم إرادة أفراد المجتمع له، ولذا نلاحظ أنّ اجتماع إرادة أفراد المجتمع الإيرانيّ -مثلاً- في زمن الثورة الخمينيّة، قد ساهم في إحداث التغيير المطلوب في المجتمع، فكانت النتيجة بناء الجمهوريّة الإسلاميّة.

وهذه الإرادة الاجتماعيّة، هي أيضًا عنصر مهمّ جدًّا في عملية التمهيد لدولة صاحب العصر والزّمان، فإذا لم يكن هناك إرادة انتصار للحقّ ونصرة لصاحب الزمان، فثمة مانع عن الظهور، بمعنى أنّه يؤدّي إلى تأخير عمليّة الظهور، لأنّ الظهور مرتبط بتحقق هذه الإرادة ولو بشكل إجماليّ، بل إرادة الأمّة مخالفتهم عليهم السلام هو الذي أدى إلى غيبته، فلا يظهر إلّا بارتفاع المانع.

والإرادة الاجتماعيّة مهما بلغت من التوافق بين الأفراد لا تعطي ثمرتها عادة، ولا يمكن المحافظة عليها إلّا في ظلّ وجود قائد موثوق تتوافق الإرادة الاجتماعيّة على قيادته ويلتفّ حوله أفراد المجتمع باختيارهم، وإلّا مع عدم وجود القائد فإنّ هذا التوافق بين الإرادات الفرديّة في المجتمع

سرعان ما يتلاشى، لأنّ القائد هو الذي يحافظ على اشتعال الإرادة الفرديّة بحيث تتوافق مع إرادة المجتمع، لأنّه يشحن تلك الإرادة بالطاقة اللازمة للاستمرار، ويوجّه تلك الإرادة، ويستثمر فيها لتحقيق الهدف.

فمثلاً قد توجد لدى كثير من الأفراد حالة معارضة عامّة تجاه الوضع القائم في بلد ما، فيشعرون بالاشمئزاز من الأوضاع السياسيّة أو الاقتصاديّة مثلاً، ويكون لدى جميع الأفراد إرادة رفض للواقع القائم وسياسات الحكومة التي أوصلت إلى تردّ الأوضاع المعيشيّة للناس، ورغم الضرر الكبير الذي قد يلحق كثير من الأفراد كالفقر والبطالة و...، إلاّ أنّهم لا يحرّكون ساكنًا إلاّ الرفض داخل أنفسهم أو التعبير عن ذلك على وسائل التواصل الاجتماعيّ أو في جلساتهم الخاصّة دون أن يتحوّل ذلك إلى حركة وثورة، بسبب غياب القائد مثلاً، أو وحدة الهدف...

وعلى كلّ حال، كلّ هذه المشاعر التي يعيشها الناس تجاه الواقع القائم، فإنّ الأطروحة المهدويّة تؤدّي دورًا مهمًّا فيها من ناحيتين:

الأولى: من حيث الجماعة المؤمنة بالأطروحة المهدويّة، فإنّ المهدويّة تمدّهم بالقوة على مواجهة الظلم والانحراف والفساد، وتدفعهم إلى المشاركة في إيجاد التحوّل الاجتماعيّ.

والثانية: من حيث الجماعة التي لا تعتقد بالأطروحة المهدويّة بمعناها الشيعيّ الخاصّ، وإن كانت تعتقد بضرورة وجود المخلّص فطريًّا أو دينيًّا، فإنّ هذه المجتمعات ستصل إلى مرحلة تشعر باليأس عمّا بين أيديها من أنظمة حكم وفلسفات اجتماعيّة قادرة على تأمين العدل والحقّ والخير ودفع الظلم والفساد والشرّ، ويرافق هذا اليأس شعورٌ بالأمل، فتصبح

المجتمعـات تمتلك -بـين اليأس من كلّ الأيديولوجيـات القائمة والأمل بالخـلاص- القابلية والاسـتعداد لقبـول المهدي عجل اللـه تعالى فرجه الشريـف بكامل إرادتها الحـرّة، فيصبح هناك توافـق إرادات على نصرته والالتحاق بمشروع التحوّل التاريخي لصاحب الزمان.

عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنّه قال: «ما يكون هذا الأمر حتى لا يبقى صنـف من الناس إلّا وقد وُلّوا على الناس، حتى لا يقول قائل: إنّا لو وُلِّينا لعدلنا، ثم يقوم القائم بالحقِّ والعدل»[1].

1 - النعماني، الغيبة، ص 280.

المبحث الخامس
الاستخلاف ودوره في صناعة التاريخ

● أوّلًا: طبيعة مجتمع الخلافة في القرآن الكريم

النقطة المحوريّة والأساس في القرآن الكريم، يكشف عنها الحوار الّذي حصل بين الملائكة والله سبحانه وتعالى، كما عرضته سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾. (البقرة: 30)

فإذا حلّلنا مضمون هذه الآية الكريمة، نستخلص منها مجموعة عوامل ترسم طبيعة النظرة القرآنية إلى المجتمع البشريّ، وهي:

أوّلًا: الإنسان.

ثانيًا: الأرض.

ثالثًا: العقيدة، أي الإيمان بوجود الله والارتباط به على نحو الخلافة.

هذا من الناحية النظرية، أو لنقل من ناحية ما ينبغي أن تكون عليه صورة المجتمع البشري في ضوء الأهداف الإلهية لخلق الأرض والإنسان، أمّا من الناحية العملية، فقد نجد أنّ المجتمعات البشريّة قد تتّخذ صورتين:

الأولى: هي تلك المجتمعات التي يتوفّر فيها خصوص العاملين الأوّلين، أي الإنسان والأرض، إذ لا يخلو مجتمعًا من المجتمعات عنهما،

فالمجتمع في صورته البدويّة هو عبارة عن مجموعة من أفراد الإنسان الّذين يعيشون على أرض مشتركة.

والثانية: المجتمع الذي يكون -بالإضافة إلى ما تقدَّم- بين أفراده علاقة من نوع خاص، تقوم على أساس الإيمان بعقيدة الاستخلاف، بمعنى أنّ هذا المجتمع يختلف عن المجتمعات السابقة بأنّه يتحرك في الحياة انطلاقًا من هذه العقيدة، ويبني المجتمع في ضوء تلك العقيدة.

وبعبارة أخرى، تقوم هذه الرؤية القرآنية للمجتمع على أساس حضور الله سبحانه وتعالى، ويمكن استخراج هذه الأمر في خلال تفكيك مفهوم (إنيّ جاعل في الأرض خليفة)، حيث إنّ عملية الاستخلاف تقتضي:

1. وجود المُستخلِف (بصيغة اسم الفاعل) وهو الله سبحانه وتعالى.

2. وجود المُستخلَف (بصيغة اسم المفعول) وهو أفراد الإنسان، وليس مشروع الاستخلاف على مستوى الشأنيّة أي القابلية والاستعداد خاصّ بفرد محدّد أو فئة خاصة، بل المُخاطَب بمشروع الاستخلاف هو مطلق أفراد الإنسان، قال تعالى: (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض) (فاطر:39).

3. المُستخلَف فيه (وهو الأرض) قال تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (هود:66)، أي فوَّض لهم الله تعالى عمارة الأرض بتحويلها إلى بيئة صالحة للانتفاع منها.

فهذه العملية تفيد، أنّ العلاقات بين أفراد الإنسان في المجتمع البشري من جهة، وبين أفراد الإنسان والأرض التي يعيشون عليها، ينبغي أن تكون في ضوء ما يريده المُستخلِف ومستلزمات الخلافة، القائمة على أساس أنّ الله تعالى هو الخالق والجاعل والمُدبّر لشؤون الكون والطبيعة، فأيّ

علاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبينه وبين الطبيعة، تقوم على أساس حضور الله فيها، أي يتصرّف الإنسان مع الإنسان في ضوء مشروع الخلافة، ويتصرّف الإنسان مع الأرض في ضوء مشروع الخلافة.

بينما تقوم الرؤية الأولى في بناء المجتمعات على إقصاء حضور الله تعالى، وبالتالي تقوم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان أو بين الإنسان والطبيعة خارج دائرة مشروع الاستخلاف، فتتحرّر من المسؤولية أمام الله، وبالتالي ليس ثمّة مُلزِم للإنسان أن يتصرّف مع باقي أفراد البشر ومع الأرض وثرواتها وخيراتها في ضوء أيّ معايير تمنعه من استغلال ذلك لمصلحته الخاصة والشخصيّة والماديّة المحضة.

وهذا يعني، أنّه مع كون الاستخلاف سنّة إلهية في المجتمعات البشريّة، إلّا أنّها ليست سنّة قهرية، بل هي سنّة خاضعة لتوسط الإرادة الحرة للبشر، واختيارهم، فهي سنّة يمكن للإنسان أن يعصيها ويتمرّد عليها، بخلاف بعض السنن التي لا تقبل التمرّد عليها.

● ثانيًا: دور المُستخلَف في حركة التاريخ البشريّ

ذكرنا في المبحث الثالث أنّ هناك سنّة إلهية حاكمة على المجتمعات، وهي أنّ أي عمليّة تغيير اجتماعي لا يمكن أن تحقق مُكتسبات الخلافة إلّا بعد أن عملية التغيير النفسيّ لأفراد المجتمع البشريّ، فسعي الإنسان لتغيير عالمه الذاتي وإيجاد التحوّل المناس في عالم الداخل أي الأفكار والملكات الأخلاقية والعواطف والمشاعر... هو حجر الأساس لتغيير العالم الخارجي والبيئة المحيطة...

هـذا، مضافًا إلى عامل آخر يؤثر في حركة الإنسـان نحو إحداث التغيير المطلوب، وهي أنّ الإنسـان لا ينجذب إلى قوة الماضي فقط، فالماضي عامـل مؤثّـر في حياة الإنسـان، إلاّ أنّه هنـاك عامل آخر أهـم تأثيرًا، وهو التطلّع نحو الغدّ، أي أنّ تصوّر الإنسـان عن المستقبل يدفعه لإيجاد ذلك التصوّر الذي رسـمه في أفق ذهنه عن أي مجتمع يريد وأي حياة يتمنى أن يعيش، فالمستقبل يُشكّل الشحنة الدافعة التي تُطلِق الإنسان وتمنحه القوة والنشاط لإحداث التغيير المطلوب وتحقيق الأهداف المرجوة.

فهنا أربعة عوامل مؤثّرة في حركة الإنسان لصناعة التاريخ:

1. العقيدة.
2. التصور عن المستقبل.
3. الإرادة البشريّة الحرّة.
4. العمل والنشاط والحركة.

ويتميّز المجتمع القائم على أسـاس عقيدة الاستخلاف في طبيعة النظرة إلى هـذه العوامل التـي تصنع بامتزاجها حركـة التاريـخ، فالعقيدة قائمة على أسـاس الإيمـان بالله تعـالى وخالقيته وحكمته وبأنّه خلق الإنسـان لأجـل معرفته وعبادته والوصول إلى الكمال اللائق بحاله في ضوء التزامه بالتعاليم الدّينيّة.

والتصوّر عن المستقبل قائم على أساس مبدأين أساسين:

الأول: الإيمـان بالمعاد، وبأنّه ثمة عالم بعد الموت، يُبعث فيه الإنسـان للمساءلة والمحاسبة والوقوف بين يديّ الله تعالى.

والثاني: الإيمان بالمهدويّة، وبأنّ مستقبل البشريّة سائر إلى نقطة ينتصر

فيها الخير على الشرّ والحق على الباطل.

والإرادة هي العزيمة والتصميم على تحويل العقيدة والتصوّر إلى نشاط وحركة لإحداث التغيير وتحقيق الأهداف.

فإذا أحدث الإنسان التغيير المطلوب في عقيدته، وتصوراته، وإرادته، والتي تشكّل التغيير الأنفسي، وتحرّك وفقها، فإنّ لا شكّ سيحدث التغيير المطلوب في الوصول إلى انتصار الحقّ على الباطل وبناء المجتمع المهدوي المطلوب.

المبحث السادس:
دور المثل الأعلى في حركة التاريخ نحو انتصار الحق والعدل

● أوّلًا: المثل الأعلى يجسّد الغايات والأهداف

لا شكّ في أنّ الغايات والأهداف تلعب دورًا أساسًا في تغيير الإنسان وتحريكه نحو صناعة المستقبل، ويؤدّي تجسّد هذه الغايات في شخص محدّد نصطلح عليه اسم «المثل الأعلى»، عاملاً رئيسًا في حركة الإنسان، فكلّما كان المثل الأعلى أو القدوة أو النموذج الأمثل لهذه المجتمع أو ذلك يتمتّع بمواصفات كاملة خاصة، يكون المجتمع أقرب إلى الكمال، لأنّ المجتمعات بطبيعتها تحاكي نماذجها ومثلها وتتلبّس بمواصفاتها التي تتحلّى بها، وكلّما كان النموذج أو المثل الأعلى يتصف بصفات دنيا ومنخفضة، كلّما تدنى مستوى هذا المجتمع أو ذاك الذي يحاكي النموذج المنخفض، فإذا كان المثل الأعلى للمجتمع الإيماني الذي تتجسّد فيه الغايات والآمال والطموحات هو شخص كالإمام المهديّ (عج) وهو الإنسان الكامل المعصوم... كلّما كانت قوة الجماعة على صناعة الصلاح والسعي إلى الحقّ والخير والعدل و... أقوى لأنّها تحاول أن تحاكي نموذجها، وإذا كان النموذج الذي يجسد الغايات العليا للجماعة هو كفرعون أو هامان أو قارون أو النمرود أو أبي لهب ... فإنّها تسير في صناعة المستقبل نحو الظلم والاستبداد والشرّ والفساد...، فإذا كان

المستقبل هو صناعة الإنسان، وإذا كان العالم الأنفسي للإنسان يتأثر بالغايات والمثل العليا، فإن المستقبل هو صورة عن ذلك، وعليه كلّما سعى أفراد البشر إلى تغيير محتواهم الداخلي عقيدة وفكرًا وتصورات، وكلّما تأسّوا بمثل أعلى يجسّد الحق والعدل والخير و...، كلما كانوا أقرب إلى مجتمع العدل العالميّ.

والمثل الأعلى مطلقًا الذي هو أصل فيض المُثل العليا هو الله سبحانه وتعالى، حيث إنّ كل المثل العليا التي هي دون الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن المثل المنخفضة، هي محدودة في ذاتها، لا يمكّن أن توفّر للإنسان الشعور بالكمال والسعادة، ولا يمكن أن تجعل الغايات التي خُلِق لأجلها الإنسان واقعية ومتجسّدة في حياته، فكل مثل أعلى لا يرتبط بالله تعالى ولا يأخذ بيد الإنسان إليه عزّ وجلّ هو في الحقيقة مثل منخفض.

وثمة أزمة حقيقية تعيشها المجتمعات التي تتّخذ من غير الله تعالى مثلاً أعلى، وهي أنّ كلّ مثل أعلى ينبثق من آمال الأمّة وطموحاتها ونظرتها إلى المستقبل بمعنى الغايات والأهداف التي يراد تحقيقها والوصول إليها، وأي مثل أعلى غير الله تعالى فهو مثل مصنوع للذهن البشريّ، فيكون محدودًا لا يختزن في داخله القوة المطلقة، بسبب محدوديّة تصورّات الإنسان، فيمكن لهذا المثل المحدود أن يفيد هذه الأمّة أو تلك الأمة إلى مرحلة معيّنة ثم يستنفد طاقته، بمعنى أنّه لا يستطيع أن يلبي حاجة الأمة في مسيرتها الطويلة نحو المستقبل إلى أن تصل إلى النقطة التي تحقّق فيها كلّ غاياتها وأهدافها، لأنّه مثل محدود، وبالتالي قد يتحوّل هذا المثل المحدود إلى حجر عثرة في طريق تطور الأمة في مرحلة ما من

مراحل مسيرتها نحو المستقبل، ويصبح عاجزًا عن الأخذ بيدها إلى تحقيق الأهداف المرجـوة كالعدل والخير والحقّ و.... وحتـى لو تصوّر الذهن البـشري هـذا المثل مطلقًـا إلى أنّ يكون كذلك في التصـوّر دون الواقع، وبالتالي سيسـتنزف هذا المثل في مرحلة مـا قوته المحرّكة لهذا المجتمع أو ذاك، ولـذا نلاحظ أنّ المجتمعات كثيراً ما تغيّر مثلها العليا، وتنتقل من مثل إلى مثل عندما تشعر أنّه لم يعد قادرًا على تلبية طموحاتها وآمالها التي كانت تعقدها عليه، وهذا ما يفسّر سرعة اعتقاد الغربيّين بفلسـفة وسيادتها عـلى الحضـارة الغربية، ثـم الانتقال منهـا إلى غيرها، وهكـذا، فكم هي الأفكار والفلسـفات التي تصوّرها الإنسـان الغربي أنّها تجسّد طموح هذا المجتمع أو ذاك ثم تخلى عنها، كالماركسية، والوجوديّة، والوضعيّة، و... وسـيأتي الزمان الذي يشعر معه الإنسـان الغربي أنّ الرأسمالية والليبرالية والديموقراطيّة لم تعد قادرة على تحقيق طموحاته وآماله... لأنّها ستتحول إلى عائق أمام مسيرته نحو المستقبل الذي يطمح إليه.

ولا يمكن التنسيق بين المحدود وغير المحدود إلّا في ضوء الإيمان بأنّ الله تعالى هو المثل الأعلى المطلق الحقيقي والواقعي، ويجيب الشـهيد السـيد محمـد باقر الصدر على السـبب في ذلك، بقولـه: لأنّ هذا المثل الأعلى ليس من نتاج الإنسان، ليس إفرازًا ذهنيًّا للإنسان، بل هو مثل أعلى عينـيّ له واقع عيني. هو موجود مطلـق في الخارج، له قدرته المطلقة وله علمه المطلق وله عدله المطلق.

هـذا الوجود العينـي بواقعه العيني يكـون مثلاً أعلى لأنّـه مُطلَق، لكن الإنسـان حينما يريد أن يسـتلهم من هذا النور... هو لا يمسـك إلّا بقدر

محـدود مـن هذا النور، إلاّ أنّه يُميِّز بين ما يُمسـك به وبـين مثله الأعلى، المثل الأعلى خارج حدود ذهنه، لكنه يمسك بحزمة من النور.

ومن هنا حرص الإسـلام على التمييـز دائمًا بين الوجود الذهني وما بين الله سبحانه وتعالى الذي هو المثل الأعلى. فرَّق حتى بين الاسم والمسمى وأكّـد على أنـه لا يجوز عبادة الاسـم. وإنّما تكون العبادة للمسـمّى لأنّ الاسم ليس إلاّ وجودا ذهنيًّا، إلاّ واجهة ذهنيّة لله سبحانه وتعالى[1].

● ثانيًا: المثل المنخفض وحركة التاريخ المعاكسة

مـن أخطر المسـائل التي يواجهها الإنسـان المعاصر هـي المثل العليا المنخفضـة، ونقصـد بالمثـل العليـا المنخفضـة هـي تلك الأفـكار أو الشـخصيات التي يسـتلزم محاكاتها من الأفراد وتقليدهـا واتخاذها قدوة في الحياة أن ينحدر الإنسان ويرد أسفل سافلين، وقد تنشّط حضور المثل المنخفضـة في عصرنا الحـاضر في حياة الأفراد لأنّها دخلت إلى كلّ بيت بواسطة الهاتف الذي يحمله الإنسان في يده، كالقادة السياسيّين الفاسدين والمطربـين والممثلـين والرياضيـين والناشـطين على وسـائل التواصل الاجتماعيّ...

وليـس من الضروري أنّ يكون المثل المنخفض متجسّـدًا في شـخص بعينه، بل قد يكون متجسّدًا في فكرة أو مفهوم مؤثّر في حياة الناس بمعنى أنّه عنصر محرّك لهم في نشـاطهم اليوميّ، كمفهوم الحريّة، حيث يضفي

1 - الصدر، المجتمع والتاريخ، ص389.

الإنسان على هذه الشخصيات أو الأفكار صفة القداسة، ويتمسّك بها، بل قد تتحوّل إلى دين من صناعة الإنسان، وتصبح هذه المثل المنخفضة آلهة يخلقها الإنسان بيده.

مثل هـذه المجتمعات التي تتجسّـد غاياتها في المثـل المنخفضة هي في الحقيقـة لا تتحرّك نحو المسـتقبل، وإنّما تكون حركـة التاريخ عندها معاكسـة، فهي إمّـا أنّها تكرّر ذاتها، أو تعيش أسـيرة المـاضي وما ألفت عليـه آباءها، فلا تتقدّم في طريق التكامـل إلى الأمام، فتفقد فاعليتها على المشاركة في وصول البشريّة إلى نقطة الانعطاف نحو انتصار الحق والخير وحاكمية الدولـة المهدويّة العالميّة، بل تكون عنصرًا مسـاهمًا في جمود حركة التاريخ أو تحرّكها باتجاه الماضي كما ذكرنا.

ومن القضايا الخطيرة في هذا السياق، هو أن تتّخذ الأمة -التي لديها مثل أعـلى صالح وواقعي على المسـتوى العقائدي وتمتلك مخزونًا من الحق والخـير والصلاح- مـن المُثل المنخفضة قدوة لها، فتنجـذب إليها نتيجة السقوط في مستنقع الماديّة واللذّة الحسيّة أو الشعور بالهزيمة النفسيّة أمام تلـك المثل المنخفضة، وتتخلّى عن مثلهـا العليا وتفقد ولاءها لها، فتقلّد المثل المنخفضة في نمط الحياة وأسلوب العيش واللباس والطعام والفن والأدب والسـكن و... فتفقد أصالتها بعد أن تنصهر في المثل المُسـتورَدة وتعطي تلك المثل حقّ قيادتها في الحياة بعد أن تمنحها ولاءها.

وهنا تقع مثل هذه الأمة -كالأمّة الإسـلاميّة- أمام تحدٍّ كبير، وهو تحرير ذاتها وإعادة نفسـها إلى التموضع داخل عقيدتهـا والارتباط بمثلها العليا والخروج من شرنقـة الانصهار في ثقافة الآخر ومثله المنخفضة، كي تعيد

نفسها إلى الطريق الذي يأخذ بيدها إلى التمهيد للدولة المهدويّة التي تجسّد الغايات العليا والطموح والآمال في المستقبل.

● **ثالثًا: حركة الإنسانية نحو المثل الأعلى «الله سبحانه وتعالى»**

يقول تعالى: ﴿**يا أيها الإنسان إنّك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه**﴾ (الإنشقاق:6)

تخاطب هذه الآية القرآنية الإنسان بما هو إنسان، ولم تحدّده بنوع خاص، كالمؤمنين مثلاً، وبالتالي هي تشمل جميع الأفراد الّذين ينطبق عليهم مفهوم «إنسان» في أيّ زمان أو مكان، ولأي فئة أي قوميّة أو لغة أو دين أو عقيدة انتموا، فالإنسانيّة بكلّ أفرادها ومجتمعاتها تتحرّك باستمرار نحو الله سبحانه وتعالى، هذه الحركة الممتزجة بالألم والمشقّة، ولذا اصطلح عليها القرآن «الكدح»، الذي هو الكدّ والجهد المتواصل والسعي المستمر للوصول إل الهدف الواقعيّ، فالبشريّة في ضوء المنطق القرآني تتحرك نحو الكمال، أي أنّه ثمة نقطة ستصل إليها الإنسانيّة تتحوّل فيها آمالها وطموحاتها في المستقبل إلى واقع، حيث تلاقي نتيجة كدحها، وتكون في لقاء مع الله تعالى الذي هو المثل الأعلى الذي يُجسّد الغايات كلّها.

فالظاهر أنّ هذه الآية ليست إنشائية، أي ليست في مقام الطّلب من الإنسان أن يكدح ويتحرّك، بل هي جملة خبرية، أي في مقام توصيف ما هو كائن وحاصل، فـ» لغة الآية، لغة التحدّث عن واقع ثابت وحقيقة قائمة، وهي أنّ كلّ سَيْر وكلّ تقدّم للإنسان في مسيرته التاريخيّة الطويلة

الأمد، فهو تقدّم نحو الله سبحانه وتعالى وسير نحو الله سبحانه وتعالى، حتى تلك الجماعات التي تمسّكت بالمثل المنخفضة وبالآلهة المصطنعة واستطاعت أن تحقّق لها سيراً ضمن خطوة على هذا الطريق الطويل، حتى هذه الجماعات التي يسمّيها القرآن بالمشركين هم يسيرون هذه الخطوة نحو الله»[1].

فالله تعالى هو نهاية طريق الإنسان، قصد ذلك أم لم يقصد، فحتى الإنسان الذي لم يتّخذ الله تعالى مثلاً أعلى في حياته، ولم يتخلّق بأخلاق الله تعالى، نهايته إلى الله تعالى، نعم ثمة فرق جوهري بين من يتّخذ الله تعالى مثلاً أعلى وبين من يتّخذ المثل المنخفضة موجّهة لحياته، بأنّ الأوّل لا يعيش التناقض بين الآمال والطموحات وبين الواقع، لأنّه يوّفق في حياته بين عقيدته وتصوراته وبين الواقع، بمعنى أنّه سيكون شريكًا في صناعة المستقبل المأمول للبشريّة الذي تسود فيه قيم الحقّ والخير والعدل والقسط، ويزيل من أمامه كلّ عقبة تتمثّل في المثل المنخفضة والأصنام المعاصرة التي تعيق أي حركة تجاه الهدف الحقيقي.

فالفئة الأولى من الناس تحمل لواء التوحيد في العقيدة، والواقع سيصل إلى نقطة يتحقّق فيها لواء التوحيد حيث سيرث العباد الموحّدون الأرض، ويظهر الدّين التوحيدي في جميع بقاع الأرض ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدّين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سورة الصف، الآية: 9).

1 - الصدر، المجتمع والتاريخ، ص391.

فدور دين التوحيد تعبيد هذا الطريق الطويل لمسيرة الإنسانية، وإزالة العوائق من خلال تنمية الحركة كميًّا وكيفيًّا ومحاربة المثل المصطنعة والمنخفضة التي تجمّد الحركة وتعريها من الشعور بالمسؤولية، ومن هنا أبرز القرآن الكريم سنة من سنن التاريخ وهي أنّ الأنبياء دائمًا كانوا في حرب مع الآلهة المصطنعة على مرّ التاريخ ويواجهون المترفين من مجتمعاتهم كقطب آخر من المعارضة مع هذا النبي أو ذاك[1]، يقول تعالى: ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون**﴾ (سورة الزخرف، الآية: 23).

فالدّين التوحيدي هو الـذي يقضي على كلّ الآلهة المصطنعة والمزيّفة والمثـل المنخفضة في نهاية التاريخ، حيث يسـجّل لـه الانتصار، ويقطع صلة الإنسـانية بكل ما سوى المثل الأعلى الذي هو الله تعالى. والإسلام أراد للبشريّة أن تتعامل مع المثل الأعلى الذي هو الله تعالى ليس كموجود منفصل عن واقع الإنسـان، بـل هو الموجود الذي تتجسّـد فيه -إن صحّ التعبـير- كلُّ غايـات الإنسـان وآماله، ولكـن لا يصل الإنسـان إلى تلك الغايات إلّا بالتخلّق بأخلاق الله تعالى والتعامل مع الصفات الإلهية على أنّهـا بوصلة توجهه في مسـيرته نحو صناعة المسـتقبل الـذي يطمح إليه فطريًّا.

ويركّز الإسـلام كما تبيّن على أنّه ثمة رابطة بين الله تعالى وبين الإنسانية في حركتها نحو أهدافها تتمثّل في الأنبياء الّذين يقومون بمكافحة ومحاربة

1 - المصدر نفسه، ص393.

كلّ أشـكال المثـل المنخفضـة، ويخوضون حربًا ضروسًـا ضـد الآلهة المصطنعة، فيمدّون البشريّة بالطاقة التي تحتاجها لتستمر في حركتها نحو الهدف الذي خلقت لأجله، ولا تتوقف هذه المسـيرة النبويّة، فالأرض لا تخلو من حجّة، وإلّا لساخت بأهلها، حيث يتابع قيادة هذه المعركة الإمام عليه السـلام، ليواصل الحرب التي خاضها الأنبياء، والتي تتمثّل اليوم في المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف.

فالمهدويّة هي حركة الإنسانية نحو الارتباط بالمثل الأعلى الذي هو الله تعـالى، وإزالـة كلّ المثل المنخفضة التي هي مـن صناعة الذهن البشريّ ونتاج أوهامه، فيسود العالمَ التوحيد والعدلُ والحقُّ والقسطُّ ويرتفع الظّلم والشرك والكفر والباطل...

المبحث السابع:
السنن الاجتماعيّة والتاريخيّة في القرآن المرتبطة بالدولة المهدويّة

● **أوّلًا: التاريخ البشري يتحرّك ضمن سنن تكون نهايتها انتصار الحق على الباطل**

يقول تعالى: ﴿**وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ**﴾ (سورة الأنفال، الآيتان 7-8:).

ويقول تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (سورة براءة، الآية :33).

هاتان الآيتان -وغيرهما ممّا ستأتي- تبيّن بوضوح أنّ التاريخ البشري يتحرّك ضمن قوانين وسنن تكون نهايتها انتصار الحق على الباطل وحاكمية الدّين التوحيدي على العالم، حيث يظهر دين الحق على غيره من الأديان كلّها، ومعنى إظهار الدّين على غيره أي نصرته وتغليبه، فلا يبقى ثمة دين آخر غير الإسلام في جميع أنحاء الأرض. وقد فسّر الإمام الباقر عليه السلام الآية المذكور بخروج القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف، فقال عليه السلام: « القائم منّا منصور بالرعب، مؤيّد بالنصر، تطوى له الأرض، وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر به الله دينه على الدّين كلّه ولو كره

المشركون»[1].

ومنها قول الله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله**﴾ (سورة الأنفال، الآية :39). وسياق هذه الآية، والتي قبلها، يفيد تحريض المؤمنين على القتال بمعنى أنّ الله تعالى أراد انتشار هذا الدّين في العالم البشري بنحو لا بد من السعي والمجاهدة في ذلك[2].

فهذه السنة التاريخيّة الحتميّة في انتصار الحقّ وحاكمية الدّين لا تأتي من تلقاء نفسها، بل تحتاج إلى بذل الجهد والسعي والمشاركة في الانتظار الإيجابي والتمهيد لدولة صاحب العصر والزمان بالإعداد للنفس والتأهيل والتدريب للآخرين، أي أن يجعل الإنسان من نفسه عبدًا صالحًا ليكون مصداقًا للعباد الصالحين الّذين يرثون الأرض ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ (سورة الأنبياء- الآية: 105)، والمراد من وراثة الأرض انتقال التسلط على منافعها إلى عباد الله الصالحون الّذين ورد في الروايات أنّهم «هم القائم وأصحابه في آخر الزمان»، فيكون مؤدي الآية أن الأرض ستتطهر من الشرك والمعصية ويسكنها مجتمع بشري صالح يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا[3]. ويمكنّ الله تعالى لهم دينهم الذي ارتضى لهم كما في قوله تعالى: ﴿**وعد الله الّذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الّذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من**

1 - الصدوق، كمال الدّين وتمام النعمة، ص359.
2 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج9، ص247.
3 - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج14، ص330.

بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (سورة النور، الآية : 55). وقوله تعالى : ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾** (سورة القصص، الآية :5-6).

فالله سبحانه يَعِدُ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّه سيجعل لهم مجتمعًا صالحًا خالصًا من الكفر والنفاق والفسق، يرث الأرض، لا يحكم في عقائد أفراده ولا أعمالهم إلاّ الدّين الحق، يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج، أحرارًا من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكمين. وهذا المجتمع الطيّب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بُعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام[1].

وإذ دقّقنا النظر في مفردات «الصالحون» «آمنوا» «عملوا الصالحات» وغيرها ... من جهة أنّها يترتب عليها «الاستخلاف» و «الوراثة» و«التمكين» نفهم أنّ أحداث التاريخ ليست سلسلة من الصدف التي تحصل بالاتفاق بحيث لا يمكن أن نعرف ما هي قاعدتها العامة، بل ندرك أنّ الصلاح والإيمان والعمل الصالح هي المقدّمات الضرورية التي تؤدي إلى تحقّق مجتمع

1 - المصدر نفسه، ج5، ص199.

الخلافة والوراثة والتمكين و... فإرادة الإنسان والعوامل الأخلاقية لها الدور الأهم في حركة التاريخ وتغيّر أحداثه، وهذا ما يمنح الانتظار لونًا مختلفًا عمّا هو في تصوّر البعض من أنّ المجتمع المهدوي يأتي إلينا ونحن قاعدون كذهنية بني إسرائيل عندما قالوا للنبي موسى عليه السلام ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾ (سورة المائدة، الآية :24)، فالمجتمع المهدوي لا يتشكّل بذاته، بل نحن من نصنعه بإرادتنا الحرّة واختيارنا الواعي، كما قال المقداد يوم بدر للنبي صلى الله عليه وآله: «اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا معكم مقاتلون»[1]، هذه هي الروحية الجهادية التي يحتاجها الفرد المُنتظِر للقائم (عج) والتي يتوقّعها القائم (عج)، أن يقاتل ويجاهد ويناضل في سبيل المجتمع المهدوي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾ آل عمران :83. فقد روي عن الكاظم عليه السلام أنّها «أُنزلت في القائم عليه السلام إذا خرج باليهود والنصارى والصابئين والزنادقة وأهل الردة والكفار في شرق الأرض وغربها، فعرض عليهم الإسلام فمن أسلم طوعًا أمره بالصلاة والزكاة وما يؤمر به المسلم ويجب لله عليه، ومن لم يسلم ضرب عنقه حتى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلاّ وحّد الله». (تفسير العياشي، ج1، ص184). ففي زمن القائم لا مكان لغير المسلم الموحّد، فالإنسان أمام خيارين : إما أن يؤمن بالمهدي باختياره وإرادته الحرة نتيجة الآيات الباهرات والمعجزات البيّنات كما

1 - ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص615.

نقرأ في دعاء الحجة : «حتى تسكنه أرضك طوعًا»، وإمّا أن يعاند وينكر الحق تكبرًا وعلوًا فحكمه في الدولة المهدويّة هو القتل، ولا خيار ثالث بين الخيارين، ولذلك لا يقبل القائم (عج) من أهل الكتاب الجزية كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام.

ولو تتبّعنا تاريخ الحضارات المختلفة، لعثرنا على أنّ كل أمة لديها تؤمن بأنّ مستقبل البشريّة سيكون تحت حكومتها العالمية، فاليهودية تؤمن بأنّ اليهود سيحكمون العالم، والمسيحية تعتقد بأنه سيأتي يوم يظهر فيه المسيح وتحكم المسيحية العالم، وكذلك الماركسية تعتقد بأنّ التناقض الطبقي والصراعات الاجتماعيّة ستقود البشريّة إلى يوم تسود فيها الشيوعية العالم، ففسّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، تُصفّى فيه كلّ تلك التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام. وكذلك، الفلسفة الليبرالية الأمريكية التي تنادي بحرية الإنسان وتقدّس الفردانية، كما نظّر لها فرانسيس فوكوياما في كتابه : «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، حيث أراد أن يثبت أنّ الديمقراطيَّة الليبراليَّة بما تحمله من قيم الحرية، المساواة... إلخ، تُشَكِّلُ الحلقة الأخيرة من تطوّر المجتمعات البشريّة، كصيغةٍ نهائيةٍ للحكومة البشريّة العالميّة.

ونحن نعتقد أنّ جميع هذه العقائد تشترك في قضية محقّة وهي الإيمان بأن تاريخ الإنسانية يتحرّك نحو يوم يسود فيه العدل والأمن والسلام ويرتفع فيه الظلم والجور... ولكنهم جميعًا مخطئون في الجوانب الأخرى، خصوصًا في المصداق وطبيعة عقيدة الدولة، فنحن نعتقد أنّ قائد هذه المسيرة هو الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأنّ الدولة

المهدويّة العالمية هي دولة دينية توحيدية بمعنى أنّ الإسلام المحمدي الأصيل هو الدّين الحصري والوحيد للدولة المهدويّة.

والحقّ أنّ الواحد منّا إذا تأمّل في هذا المنطق القرآني من حتميّة سنة انتصار الحقّ على الباطل يشعر بشحنة كبيرة من الأمل تنبعث في نفسه تمسح عنه كلّ مشاعر التشاؤم تجاه تطلعات البشريّة وما ينتظرها في المستقبل، فلا يصاب بالإحباط واليأس والخمول والقعود... فيكون إنسانًا حركيًّا يشارك في صناعة التاريخ ومقاومة الظلم والدفاع عن الحقّ.

● ثانيًا: النظريّات حول مستقبل البشريّة

وهذه النقطة تنعطف بنا للحديث عن النظريات حول مستقبل البشريّة، حيث نعثر على ثلاث نظريات رئيسة:

■ **النظرية الأولى:** تشاؤمية، تعتقد بأنّ الشرّ والفساد صفات لازمة للحياة الإنسانية لا تفارقها، وذهبوا إلى أنّ الحياة لا قيمة لها على الإطلاق، وأفضل ما يستطيع أن يقوم به الإنسان هو أن يضع نهاية لهذه الحياة.

■ **النظرية الثانية:** ترى بأن الحياة الإنسانية ستستمر في حركة صراع بين الشر والخير إلى أن تصل البشريّة إلى مرحلة تحفر قبرها «بفعل تطوّرها التكنولوجيّ وتقدّمها في صنع وسائل التخريب والدمار، وهي على شفا السقوط والانهيار».

■ **النظرية الثالثة:** ترفض هذه النظرية الأطروحتين المتقدّمتين، فلا الشرّ والفساد صفات تلازم البشريّة ولا التطوّر المدنيّ الماديّ بقادر

على إبادة البشريّة، بل إنّ البشريّة تتّجه نحو مستقبل مشرق سعيد تنقلع فيه جذور الظلم والفساد. هذه النظرية يبشر بها القرآن الكريم، ونهضة الإمام القائم المهديّ ترتبط بهذه البشرى السارة للبشريّة ضمن النقاط التالية :

- انتصار الحقّ والتقوى والسلام والعدل والحرية على الظلم والدجل والاستكبار والاستعباد.
- قيام حكومة عالمية واحدة.
- عمران الأرض بحيث لا تبقى بقعة خربة غير عامرة.
- بلوغ البشريّة حدّ النضج والتكامل، يلتزم فيه الإنسان طريق العقل والعقيدة، ويتحرّر من أغلال الظروف الطبيعية والاجتماعيّة والغرائز الحيوانية.
- استثمار ذخائر الأرض إلى أقصى حدّ ممكن.
- إحلال المساواة التامة بين البشر في حقل الثروة.
- اقتلاع جذور الفساد كالزنا والربا والخيانة والسرقة والقتل وشرب الخمر، وخلوّ النفوس من العقد والأحقاد.
- زوال شبح الحروب وسيادة السلام والحبّ والتعاون والصفاء.
- المواءمة بين الإنسان والطبيعة.

فالمستقبل الذي ينبغي أن تعقد عليه الآمال، والذي شاءت الإرادة الإلهية أن يسير نظام العالم تجاهه، هو هذا الذي ذكرناه[1].

1 - مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، ص40.

● ثالثًا: الانتظار الحركيّ والانتظار التقاعسيّ

ينقسم انتظار الفرج إلى قسمين :

انتظار بنّاء حركيّ ملتزم عباديّ، بل من أفضل العبادات، وانتظار مخرب معوق يبعث على الخمود والخمول والكسل والتقاعس، ويعتبر نوعًا من «الإباحية».

وهذان اللونان من الانتظار ينطلقان من نوعين من التصوّر حول الحدث التاريخيّ العظيم المتمثّل بظهور المهديّ الموعود.

وهذان التصوران ينتجان بدورهما من نوعين من التصوّر بشأن تطوّر التاريخ.

نشرح فيما يلي هذين النوعين من الانتظار. نبدأ بالانتظار المخرّب:

1 - الانتظار السلبي المخرّب

بعض المؤمنين بظهور المهديّ يتصوّرون أنّ نهضة هذا المنجي ذات طابع انفجاريّ محض، وناتجة فقط عن انتشار الظلم والجوع والفساد والطغيان، أي أنّ مسألة الظهور نوع من الإصلاح ناتج عن تصاعد الفساد. هؤلاء يتصوّرون أنّ مسيرة البشريّة تتّجه إلى انعدام العدل والقسط، وإلى زوال أنصار الحقّ والحقيقة، وإلى استفحال الباطل. وحينما يصل هذا الانحدار إلى نقطة الصفر يحدث الانفجار المرتقب، وتمتدّ يد الغيب لإنقاذ الحقيقة - لا أنصار الحقيقة - إذ لن يبقى للحقيقة أنصار آنذاك.

هذا التصور يُدين كلّ إصلاح، لأنّ الإصلاح يشكّل نقطة مضيئة على ساحة المجتمع العالميّ، ويؤخّر الإمداد الغيبيّ. كما يعتبر هذا التصوّر

كلّ ذنــب وتمييــز وإجحاف مباحًا لأنّ مثل هــذه الظواهر تمهّد للإصلاح العــام وتقرّب موعد الانفجار. هذا التصوّر يميل إلى مذهب الذرائع الذي يذهب إلى أنّ الغاية تبرّر الوســيلة, فإشاعة الفساد - بناءًا على هذا التصوّر - أفضــل عامل عــلى تسريع ظهور المهديّ وأحســن شــكل لانتظار فرج ظهــوره. أصحاب هذا التصوّر ينظرون إلى الذنوب نظرة تفاؤل واستبشــار ويعتبرونها عاملاً مساعدًا على انطلاق الثورة المقدّسة الشاملة.

وهــؤلاء ينظــرون إلى المصلحــين والمجاهدين والآمريــن بالمعروف والناهين عن المنكر بعين الحقد والعداء.. لأنّهم يعملون على تأخير ظهور المهــديّ. وأصحــاب هذا التصــوّر - إن لم يكونوا هم مــن زمرة العاصين - ينظــرون إلى أصحاب المعاصي بعين الارتيــاح والرضى لأنهم يمهّدون لظهور القائم المنتظر.

هــذا اللون من الفهم لمســألة ظهــور المهديّ وهذا النــوع من الانتظار للفرج لا يرتبط على الإطلاق بالموازين الإسلامية والقرآنية إذ إنّه يؤدّي إلى التعمّد في تعطيل الحدود والأحكام الإسلامية بل إلى نوع من الإباحية.

2 - الانتظار الإيجابي البنّاء

الآيات الكريمة التي تشــكّل أرضية التفكير حول ظهور المهديّ المنتظر تتّجــه إلى جهة معاكســة للنظرة الســابقة. هذه الآيات تشــير إلى أنّ ظهور المهــديّ حلقة من حلقات النضــال بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وأنّ هذا النضال سيســفر عن انتصار قوى الحقّ. وتتوقّف مساهمة الفرد في تحقيق هذا الانتصار على انتمائه العمليّ إلى فريق أهل الحقّ.

وتتحدّث الروايات الإسلامية عن نخبة من المؤمنين يلتحقون بالإمام فور ظهوره. ومن الطبيعيّ أنّ هذه النخبة لا تظهر معلّقة في الهواء بل لا بدّ من وجود أرضية صالحة تربيّ هذه النخبة على الرغم من انتشار الظلم والفساد. وهذا يعني أنّ الظهور لا يقترن بزوال الحقّ والحقيقة، بل أهل الحقّ- حتّى ولو قلّوا فرضًا - يتمتّعون بكيفية عالية تجعلهم في مصافّ المؤمنين الأخيار، وفي مرتبة أنصار الحسين بن علي عليه السلام. وتتحدّث الرّوايات الإسلامية أيضا عن سلسلة من النهضات يقوم بها أنصار الحقّ قبل ظهور المهديّ، مثل هذه النَّهضات لا يمكن أن تظهر دون أرضية مسبقة.

إنّ الآيات والروايات المرتبطة بظهور المهديّ المنتظر تدلّ على أنّ ظهوره يشكل آخر حلقات الصراع الطويل بين أنصار الحقّ وأنصار الباطل منذ بدء الخليقة.

فالمهديّ المنتظر تجسيد لأهداف الأنبياء والصالحين والمجاهدين على طريق الحق[1].

1 - مطهري، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، ص 44-48.

المبحث الثامن:
الإيمان بالمهدويّة شعور فطري مجبول في داخل كلّ إنسان

● **أوّلًا: الفطرة: مفهومها ومؤشّراتها**

يقول تعالى في كتابه العزيز الحكيم: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّين الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الروم، الآية:30).

خلق الله تعالى الإنسان، وأودع في داخله مجموعة من المشاعر والعواطف والرغبات والميول والغرائز... التي تساهم في تمكين الإنسان من تأمين حاجاته الحياتية الماديّة والمعنويّة وتحقيق أهدافه الوجوديّة في الدنيا والآخرة، فمثلاً جبل الله تعالى الإنسان على الغريزة الجنسيّة، لأجل أن تساعده على بناء الأسرة واستمرار النوع البشري، وكذلك زرع الله تعالى في النفس الإنسانية غريزة الدفاع عن الذات ودفع الضرر عنها، فإذا رأى الإنسان أي خطر يقترب منه يدافع عن نفسه أو يفرّ من الخطر، وكذلك غرس في داخله غريزة حبّ الاستطلاع والتعرف والاكتشاف التي تحفّز الإنسان على طلب العلم والمعرفة، ... إلخ، فهذه الغرائز والميول تساعد الإنسان على تأمين حاجاته في الحياة.

وهذه الميول والغرائز هي التي نسمّيها ـ«الفطرة»، فالفطرة هي الكيفية الخاصة التي خلق الله تعالى الإنسان عليها، فالله تعالى عندما خلق

الإنسان لم يخلقه خاليًا من أي صبغة أو لون، بل صبغه بميول معيّنة.

ومن هذه الميول الفطريّة التي يشعر الإنسان بها في داخله هي حالة الانجذاب نحو مجتمع يسود فيه العدل والإحسان والخير والحقّ ويرتفع فيه الظلم والشرّ و... فكلّ إنسان إذا تأمّل في أعماق ذاته يحسّ بأنّه يحلم بدولة العدل ويأمل أن يأتي يوم لا يكون فيه للظلم مكان في حياة الإنسان.

وإذا سألنا أنفسنا: هل هناك معايير نستطيع بواسطتها أن نعرف أنّ هذا الشعور الذي يعيشه الفرد منّا هو فطري أم غير فطري؟ فلعل بعض المشاعر تختلط علينا، فنظنّ شعورًا ما بأنّه فطري وهو لا يكون كذلك، أو العكس، فكيف نميّز بين الشعور الفطري الذي أودعه الله تعالى فينا بأصل الخلقة وبين غيره من الميول والرغبات المُكتَسبة التي نشعر بها نتيجة التربية والتثقيف والتعليم والتأثر بالمحيط الاجتماعي والبيئة الجغرافية التي نعيش فيها؟

الجواب: نعم، هناك معايير وموازين يمكن بواسطتها تحديد الشعور الفطري وتمييزه عن غيره، منها:

1 - المعيار الأوّل (الضرورة دون الاختيار): الشعور الفطري مغروس في داخل الإنسان بأصل الخلقة بنحو قهري واضطراري، فهو ليس أمرًا اختياريًّا خاضعًا لقرار الإنسان وإرادته الحرّة، فالإنسان مثلاً يختار أن يكون مؤمنًا أو كافرًا، أن يكون مصليًّا أو تاركًا للصّلاة، أن يأكل الطعام الفلاني أو لا يأكل الطعام الفلاني، أن يعمل في هذه المهنة أو تلك المهنة، ولكنه لا يختار أن يغرس في نفسه الغريزة الجنسية، فهي من خلق الله تعالى أودعه في الإنسان.

2 - المعيار الثاني (اللااكتساب وعدم القابلية للتربية والتعليم): الشعور الفطري لا يحتاج فيه الإنسان إلى اكتسابه بواسطة التعليم والتعلّم والتربية والتثقيف، فمثلاً القدرة على النطق قوة فطريّة في الإنسان، وكذلك قوة التفكير، أي أنّ الله تعالى خلق الإنسان بنحو يكون مُتمكِّنًا من النطق والتفكير.

وهذا لا يعني أنّ تنمية الشعور الفطري لا تحتاج إلى التربية والتعليم، فالإنسان وإن كان يملك بالفطرة قوة النطق، ولكنه يحتاج إلى تعلّم لغة البيئة التي يعيش فيها ليعرف كيف ينطق بالكلمات، فالمجتمع أو الأهل أو المدرسة لا يمنحون الطِّفل أصل القدرة على الكلام، بل يعلّمونه كيف يتكلّم بشكل صحيح، فلو خلق الله تعالى فردًا من أفراد البشر بأصل الخلقة عاجزًا عن الكلام كالأبكم، فلا يمكننا بالتربية والتعليم منحه القدرة على الكلام. وكذلك علم المنطق الذي يدرس القواعد العامة للتفكير الصحيح، لا يعطي الإنسان أصل قوة التفكير، بل يعلّمه كيف يفكر بشكل صحيح، وإلّا لو خلق الله تعالى الإنسان مجنونًا، فلن يمكننا بالتربية والتعليم منحه القدرة على التفكير المنطقي والعقلائي.

وبهذا يتضح أنّه إذا كان هناك شعور فطريّ فهذا لا تعني أنّ الإنسان يستغني عن التربية والتعليم في تنمية هذا الشعور الفطري، فالتربية والتعليم تعملان على تنمية الشعور الفطري دون إيجاده في النفس البشريّة.

3 - المعيار الثالث (العموم والاشتراك): الشعور الفطري كلي وعام لجميع أفراد البشر في كلّ زمان ومكان، فأي شعور فطري هو ثابت على امتداد التاريخ وفي كل حضارة ومنطقة وبلد، فهو مشترك بين الناس جميعًا، فكلّ

أفراد النوع الإنساني يتحرّكون بالفطرة لدفع الضرر عن أنفسهم، فإذا رأى الإنسان حيوانًا مفترسًا كالأسد يهاجمه نراه يلوذ فطريًّا بالفرار.

4 - المعيار الرابع (الثبات وعدم التغيّر): الشعور الفطري غير قابل للتبدل والتغير من حال إلى حال، فهو ثابت ودائم ومستمر. نعم، قد تلعب بعض الظروف والعوامل في دفن المشاعر الفطرية في منطقة الغفلة، ولكن سرعان ما تطفو على السطح عند أي مُنبّه يوقظ في داخل الإنسان ذلك الشعور، فمثلاً الإيمان بوجود الله تعالى وتوحيده أمر فطري في الإنسان، ولذلك ورد في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «كلّ مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1]، فالله تعالى يخلق الإنسان على فطرة الإسلام بأنّه لا إله إلّا الله، ولكن التربية المنزلية والبيئة الاجتماعيّة العامة تجعل هذا المولود الفطري يهوديًّا أو نصرانيًّا.

وكذلك المُلحد يغفل عن وجود الله، فيُنكره، وفي الوقت عينه، نراه عندما تحلّ به المصائب والبلايا وتتقطع به الأسباب، يلجأ إلى الله تعالى.

وهذا ما ورد في القصّة المشهورة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال له رجل: «يا ابن رسول اللّه، دلّني على اللّه ما هو؟ فقد أكثر عَليّ المجادلون وحيَّروني.

فقال له: يا عبد اللّه، هل ركبت سفينة قط؟

قال: نعم.

قال: فهل كُسِرت بكّ حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟

---

1 - المجلسي، بحار الأنوار، ج64، ص133.

قال: نعم.

قال: فهل تعلَّق قلبُك هنالك أنّ شيئًا من الأشياء قادر على أن يُخلصّك من ورطتك؟

قال: نعم.

قال الصّادق عليه السّلام: فذلك الشّيء هو اللّه، القادر على الإنجاء حيث لا مُنجي، وعلى الإغاثة حيث لا مُغيث»[1].

وورد في هذا السياق، عن الإمام الحسن العسكريّ عليه السّلام: «اللّه هو الذي يَتألَّه إليه عند الحوائج والشّدائد كلّ مخلوق عند انقطاع الرّجاء من كلّ مَنْ دونه وتَقطُّع الأسباب من جميع من سواه»[2].

فإذا وجدنا هذه المُحدِّدات الأربعة (الضرورة، العموم، الثبات، اللااكتساب) في شعور ما، فنعرف أنّه فطري.

● **ثانيًا: تطبيق مؤشّرات الفطرة ومعاييرها على القضيّة المهدويّة**

والآن لنقوم بتطبيق هذه المعايير الأربعة على القضية المهدويّة -ونعني بالقضية المهدويّة ما ذكرناه سابقًا من وجود انجذاب عند الإنسان نحو مجتمع العدالة وميل في داخله إلى يوم يصبح فيه العالم مليئًا بالعدل وخاليًا من الظلم- فهل نلاحظ أنّ الاعتقاد بالمهدويّة أمر فطريٌّ في داخل الإنسان أم أنّه اكتسبه بالتربية والتعليم والتأثّر بالبيئة الاجتماعيّة ...؟

1 - الصدوق، معاني الأخبار، ص5.

2 - الصدوق، التوحيد، ص231.

نحن ندّعي بأنّ: الشعور بالمهدويّة فطري داخل النفس البشريّة، بمعنى أنّ الله تعالى خلق الإنسان بكيفية خاصة ينجذب معها إلى مجتمع العدل العالمي.

والدليل على ذلك: أنّنا لو تتبّعنا عقائد الشعوب المختلفة على امتداد تاريخ البشري الطويل، سواء أكانت الحضارة التي ينتمون إليها ماديّة أم روحيّة، دينيّة أم علمانيّة، مؤمنة أم ملحدة، وثنيّة أم موحِّدة... نجد أن البشريّة بمختلف أديانها ومذاهبها وتياراتها تعيش طموحًا خاصًّا تجاه مجتمع عالمي عادل تأمل فيه أن تتخلّص من الظلم والاضطهاد والجور و...، فالديانات السماوية كاليهودية والنصرانيّة والمجوسية، والديانات الأرضية كالبوذية والكنفوشوسية والهندوسيّة... والعقائد الإلحادية كالماركسية... تطمح لوجود يوم تحقق فيه مسيرة الإنسان بعد معاناة طويلة الهدف الأسمى بوجود مجتمع مليء بالعدل وخالٍ من الظلم، فيحصل الإنسان على الاستقرار والطمأنينة والسكون.

ولو ركّزنا النظر على النقطة المشتركة بين هذه العقائد وأغفلنا النظر إلى التفاصيل، نلاحظ أنّ فكرة المُخلِّص، أو المُنقِذ المُنتظَر، أو الأمل بالعدل العالمي -ما شئت فعبرِّ- ليس تجسيدًا لعقيدة شيعية أو إسلامية ذات طابع ديني محض، بل هي عقيدة عامة عند جميع أبناء البشر.

فهذه المُحدّدات: (عالمية الشعور بيوم الخلاص عند الأفراد، وفي كل زمان ومكان، بنحو غير قابل للتبديل والتغيير) تدلّ بوضوح على فطرية العقيدة المهدويّة.

يقول الشهيد الصدر: «ليس المهدي تجسيدًا لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوان لطموح اتّجهت إليه البشريّة بمختلف أديانها

ومذاهبهـا، وصياغـة لإلهام فطريّ، أدرك الناس مـن خلاله -على الرغم من تنوّع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب- أنّ للإنسانية يومًا موعودًا على الأرض، تحقّق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير، وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مرّ التاريخ استقرارها وطمأنينتها، بعد عناء طويل. بل لم يقتصر الشـعور بهذا اليوم الغيبي والمستقبل المُنتظَر على المؤمنين دينيًّا بالغيـب، بل امتدّ إلى غيرهم أيضًا وانعكس حتى على أشـدّ الأيديولوجيّات والاتّجاهات العقائدية رفضًا للغيب والغيبيات، كالماديّة الجدليّة [الماركسية والشيوعيّة] التي فسّرت التاريخ على أساس التناقضات، وآمنت بيوم موعود، تُصفّى فيه كلّ تلك التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام»[1].

فهذه التجربة النفسيّة العامة عن يوم الخلاص ومجتمع العدل العالمي، هي من أوسع التجارب التي عاشتها البشريّة على امتداد تاريخها الطويل، وأعمقها تجذّرًا وأكثرها عمومًا بين أفراد البشر.

● ثالثًا: الإيمان بالمهدويّة والشعور بالأمان النفسيّ

ونعتقـد أنّ الإنسـان كي يعيش حال من السـكون والطمأنينة والسـعادة وراحة البال ينبغي عليه إشباع الميول الفطريّة والتحرّك في ضوئها وإلا بقي يعيش تحت ضغط الحاجة وإلحاح الشـعور الفطري بتأمين متطلباته، كما نلاحظ ذلك فيمن يريد أن يقمع غريزته الجنسية ويعيش حالة الرهبانية، فإنّه يتحـرّك على خلاف مقتضى الفطـرة والطبيعة، وكلّ من يتحرّك على خلاف

1 - الصدر، بحث حول المهدي، ص43.

مقتضى الفطرة يصاب بالقلق والاضطراب والكآبة، وبناء على كون الشعور بالمهدويّة أمر فطري، فلا بدّ من أن يتحرّك الإنسان في الحياة في ضوء هذا الميل الفطري للمهدويّة ويعمل على إشباع هذا الإحساس، ليطرد القلق عن نفسه ويحرّر ذاته من سجن الكآبة والاضطراب ويهنأ بالحياة الطيبة ويعيش الشعور، فكل شخص لا يتحرك طلبًا للمهدويّة وينعدم عنده الارتباط بالمهدويّة فإنّه كلّما شاهد الظلم والعدوان كلّما زاد قلقه واضطرابه، أما الإنسان الذي يؤمن بالمهدويّة فإنّه مطمئن النفس تجاه مستقبل البشريّة، فكلّما شاهد الظلم والعدوان كلّما نمت في داخله بذرة الأمل بإحداث التغيير وبظهور صاحب العصر والزمان، هذا الأمل يمنح الإنسان القدرة على الصبر والتحمل والثبات من أجل تحقيق الهدف المنشود في اليوم الموعود لا محالة (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ) (سورة الذاريات، الآية:5)، بل يدفع الإيمان بالمهدويّة الإنسان إلى أن يسعى هو بنفسه لتحقيق العدل وتهيئة البيئة الحاضنة لتحقيق مجتمع العدل العالمي والتمهيد له.

وهذا الأمل بالمستقبل المهدوي ليس مجرد حالة نفسيّة محضة للسلوة والعزاء- كما يحلو للبعض أن يصوِّر-، أي ليس شعورًا وهميًّا يصنعه الإنسان ليخفف عن نفسه أعباء الحياة وأثقال الظلم، بل هو شعور واقعي مجبول في داخل كلّ إنسان.

يقول الشهيد الصدر: «حينما يدعم الدّين هذا الشعور النفسي العام، ويؤكد أن الأرض في نهاية المطاف ستمتلئ قسطًا وعدلاً بعد أن مُلئت ظلمًا وجورًا، يعطي لذلك الشعور قيمته الموضوعية، ويُحوِّله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء

فحسب، بل مصدر عطاء وقوة. فهو مصدر عطاء، لأنّ الإيمان بالمهدي إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلها، وهو مصدر قوة ودفع لا تنضب، لأنه بصيص نور يقاوم اليأس في نفس الإنسان، ويحافظ على الأمل المشتعل في صدره مهما ادلهمت الخطوب وتعملق الظلم»[1].

● رابعًا: الإيمان بالمهدويّة بين المفهوم والمصداق

ويبقى أن نشير إلى نقطة مهمة، وهي أنّ الإيمان بالمهدويّة على نحوين:

الأول: الإيمان الكلي، بمعنى الاعتقاد بوجود يوم يسود فيه العدل على الأرض كلّها، بغض النظر عمّن سيقوم بهذه المهمة ويحقق هذا الهدف، وهذا الإيمان الكلي ينحرف عن الهدف ولا يحقّق المطلوب منه إن لم يرافقه الإيمان من النوع الثاني.

والثاني: الإيمان الجزئي أو الشخصي، بمعنى الاعتقاد بوجود شخص معيّن ومحدّد هو المُكلَّف بالقيام بهذه المهمة وتحقيق الهدف بإنشاء مجتمع العدل العالمي، وهو في عقيدتنا الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وعندما نقول بأنّ الاعتقاد بالمهدويّة شعور فطري عالمي، فإنّ المقصود هو الإيمان الكلي، أمّا الإيمان الجزئي بشخص الإمام محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف فلا يمكن أن يُدرك بالعقل وحده أو بالفطرة وحدها بل يحتاج إلى النقل والنص والدليل الشرعي على الاسم

1 - الصدر، بحث حول المهدي، ص44.

والصفات المُحدّد للشخص بعينه، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام.

وعلى كلّ إنسان أن يبحث عن الشخص الذي يقود البشريّة إلى تحقيق هذه الهدف المنشـود للانضمام تحت لوائه والجهاد بـين يديه، ليكون بذلك قد روى ظمأ الشعور الفطري ولبى نداءه فيحسّ بالطمأنينة والاستقرار النفسي.

ونعيد التذكير بالفكرة التي تقدّم عرضها في المعيار الأول، من أنّ فطرية الانجذاب نحو المهدويّـة، لا يعني أنّه لا ينبغي التربية والتعليم والتثقيف على المهدويّة، من ناحيتين:

الأولى: من ناحية تأكيد وتنمية الشعور الفطري العام بأنّه ثمة يوم سيصنع فيه الإنسان مجتمعًا عالميًّا يسود فيه العدل ويرتفع فيه الظلم.

والثانية: من ناحية المصداق والشـخص الذي ينطبق عليه ذلك الشعور العـام، وهو تربيـة النفس والآخرين على معرفة الإمـام المهدي محمد بن الحسن عجل الله تعالى فرجه الشريف وتقوية الارتباط به عقائديًّا وروحيًّا وعاطفيًّـا وسـلوكيًّا و... فمعرفـة إمام الزمـان أمر في غايـة الأهمية ليس لخصوص الشيعة والمسلمين فحسب، بل لأفراد البشر جميعًا، لأنّ الإمام المهدي ليس إمامًا للشـيعة أو للمسـلمين بل هو إمام للبشريّة كلّها، وفي هذا السياق اشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[1].

فتميّـزَ الإسـلام بأنّه حدّد لهذا الشـعور الفطري البـشري العام مصداقه

1 - المجلسي، بحار الانوار، ج23، ص78.

الواقعي، أي الشـخص الذي يجعل فكـرة الخلاص والعدل العالمي و... تتحوّل من مجرد حالة نظرية إلى واقع معاش مجسّـد في إنسـان من لحم ودم يعيـش بيننـا في الحياة اليوميـة ويشـاركنا تطلعاتنا وآمالنـا وهمومنا وأحلامنـا وأفراحنا وأحزاننـا... وبهذا يعشر أيُّ إنسـان مظلوم ومضطهد ومقهور شـعورًا بأنّ قائده المنتظر يشـاركه آلامه ويحسّ بهـا فعلاً، فيجد في هـذا القائـد الحي المعاصر له سـلوة وعزاءً لما يعاينه مـن آلام الظلم والاضطهـاد والحرمان، فيرتبط بهذا الإمام ويلجأ إليـه وينتفع به كانتفاعه بالشمس من خلف السحاب.

عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أنّه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل ينتفع الشيعة بالقائم عليه السلام في غيبته؟

وقـد سُـئِل الصادق عليه السـلام: كيـف ينتفع الناس بالحجـة الغائب المستور؟ فقال: «كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب»[1].

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إي والذي بعثني بالنبوّة، إنّهم لينتفعون به، ويسـتضيئون بنور ولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإنْ جلّلها السحاب»[2].

وعن الإمـام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف نفسـه: « أما وجه الانتفاع بي في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب، وإنيّ لأمان لأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء»[3].

1 - الصدوق، الأمالي، ص157.
2 - المجلسي، بحار الأنوار، ج52، ص93.
3 - المصدر نفسه، ص92.

يقول الشـهيد الصدر: «إذا كانت فكرة المهدي أقدم من الإسـلام وأوسع منه، فإنّ معالمها التفصيلية التي حددها الإسـلام جاءت أكثر إشـباعًا لكلّ الطموحات التي أنشـدت إلى هذه الفكرة منذ فجـر التاريخ الدّيني، وأغنى عطـاء، وأقوى إثارة لأحاسـيس المظلومـين والمُعذَّبين على مـرّ التاريخ. وذلـك لأنّ الإسـلام حـوَّل الفكرة من غيـب إلى واقع، ومن مسـتقبل إلى حـاضر، ومـن التطلـع إلى مُنقِذ تتمخض عنـه الدنيا في المسـتقبل البعيد المجهول، إلى الإيمان بوجود المُنقَذ فعلاً، وتطلعه مع المُتطلِّعين إلى اليوم الموعود، واكتمال كلِّ الظروف التي تسـمح له بممارسـة دوره العظيم. فلم يعد المهدي فكرة ننتظر ولادتها، ونبوءة نتطلع إلى مصداقها، بل واقعًا قائمًا ننتظر فاعليته، وإنسانًا معيّنًا يعيش بيننا بلحمه ودمه، نراه ويرانا، ويعيش مع آمالنا وآلامنا، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا، ويشهد كلّ ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين وبؤس البائسين وظلم الظالمين، ويكتوي بكلّ ذلك من قريب أو بعيد، وينتظر بلهفة اللحظة التي يتاح له فيها أن يمدّ يده إلى كلّ مظلوم، وكلّ محروم، وكلّ بائس، ويقطع دابر الظالمين» .

الإسلام قدّم المهدويّة بنحو أراد للإنسان أن يؤمن بها ليس كفكرة مجرّدة بل بوصفها تعبيراً عن إنسان معيّن حي يعيش مع الإنسان كلّ همومه كقائد رافض للظلـم وليس في عنقه بيعة لظالم، مما يجعـل الإيمان بهذا القائد الرافـض للظلم إيمانًـا برفض الظلم بجميع أشـكاله، بحيـث يكون هذا الرفض للظلم عنصرًا مهمًا في عملية انتظار الفرج، فانتظار الفرج يعني أن يربيّ الفرد نفسـه على أن يكون إنسـانًا ثوريًّا يجسّد في الواقع كل ما تمثله المهدويّة من قيم.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط2، 1967م.
- ابـن الأثير، المبارك بن محمد الجـزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط4، 1364ه.ش.
- ابـن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسـلم، الإمامة والسياسـة، تحقيق طه محمّد الزيني، مؤسّسة الحلبيّ وشركاه للنشر والتوزيع.
- ابـن طاووس، علي بـن موسى، الملاحم والفتن، نشر مؤسسـة صاحب الأمر، أصفهان، ط1، 1416ه
- ابـن المرتـضى، أحمد بن يحيى، طبقات المعتزلة ، تحقيق سوسـنة ديفلد، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961م.
- ابن هشـام الحميري، محمّد بن إسحاق، السـيرة النبويّة، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة المدنيّ، القاهرة، 1963ه.
- أبو هلال العسـكري، الأوائل، تحقيق وتعليق محمد السـيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، ط1، 1987م.
- بولتزر، جورج، أصول الفلسـفة الماركسـية، تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا- بيروت.
- الحر العاملي، محمد بن الحسـن، وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، 1414ه.
- الحويزي، عبد علي بن جمعة العروسي، تفسـير نـور الثقلين، تصحيح وتعليق

السيد هاشم الرسولي المحلاّتي، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم- إيران، ط4، 1370ه.ش1412-ه.ق.

■ الريشهري، محمد، ميزان الحكمة، دار الحديث، قم، ط1، 1375ه.

■ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، 2004م.

■ الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، خرج مصادره الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

■ الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت- لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 2013م، ط1.

■ الصدر، محمّد باقر، بحث حول المهدي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت،1397هـ1977-م.

■ الصدر، محمّد باقر، بحث حول المهدي، تحقيق عبد الجبار شرارة، مركز الغدير للدراسات الإسلاميّة، قم، ط1، 1417هـ.

■ الصدر، محمد باقر، ضمن كتاب: مطهري، مرتضى، المجتمع والتاريخ، ص204، دار المرتضى، بيروت، 1413ه1993-م.

■ الصدوق، محمد بن علي، الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية- مؤسسة البعثة، قم، ط1، 1417ه.

■ الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، صححه وعلق عليه السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة.

■ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، كمال الدّين وتمام النعمة، صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة- إيران، 1405ه.

■ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تعليق علي أكبر الغفاري، منشورات

جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، 1403ه.

■ الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، تعليق علي أكبر الغفاري، انتشارات إسلامي، قم، 1361ه.ش.

■ الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات الكبرى في فضائل آل محمد، تقديم وتعليق الحج ميرزا محسن كوجه باغي، منشورات الأعلمي، طهران، 1404ه.

■ الطباطبائيّ، محمّد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة.

■ الطوسي، محمد بن محمد، تجريد الاعتقاد، تعليق محمد جواد حسيني جلالي، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران، ط1، 1407ه.

■ العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

■ الكوراني، علي، جواهر التاريخ، دار الهدى، ط1، 1426ه.

■ الكليني، محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، صححه وعلّق عليه علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ط3، 1388ه.

■ المجلسي، محمّد باقر بن محمّد تقي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط2، 1403هـ.

■ مطهري، مرتضى، نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، دار التيار الجديد، بيروت-لبنان، ط2، 1427ه2006-م.

■ المفيد، محمّد بن محمّد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق مؤسّسة آل البيت لتحقيق التراث، دار المفيد، بيروت، ط2، 1414ه.

■ النعماني، محمّد بن إبراهيم، الغيبة، تحقيق فارس حسون، أنوار الهدى، قم، ط1، 1422هـ.

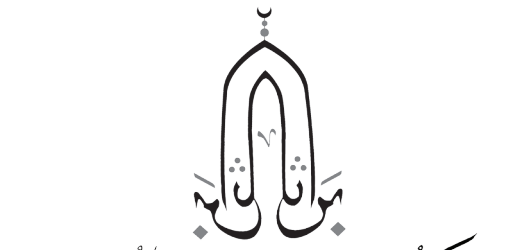

هو مركز بحثي مستقل غير ربحي، مركزه في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والاكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها ذلك الحراك الاجتماعي والانساني الكبير، الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية؛ ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة، سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

يبحثُ هذا الكتيّبُ عن نهايةِ التاريخِ الإنسانيِّ في ضوءِ المنطقِ القرآنيِّ، الّذي يُمكِّننا من قراءةِ المستقبلِ المستورِ عن الأجهزةِ الإدراكيّةِ للإنسانِ بقوّة الوحيِ الإلهيِّ، فيثبِتُ بأنَّ المجتمعاتِ البشريّةَ تتحرّكُ في ضوءِ قوانينَ خاصّةٍ نحو مرحلةٍ تستنفدُ فيه أنظمةُ الحكمِ كلُّها طاقتَها، وتعيشُ البشريّةُ في الصيغةِ النهائيّةِ لتطوّرِها حتميّةَ انتصارِ الحقِّ على الباطلِ انتصارًا ساحقًا، تختفي معه أشكالُ الصّراعِ كافّة، وألوانُ الإلحادِ والكفرِ والشركِ والظّلمِ والفسادِ، وينتشرُ التوحيدُ والعدلُ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها بسيادةِ الدولةِ المهدويّةِ العالميّةِ، كدولةٍ دينيّةٍ توحيديّة.

هذه العقيدةُ تبعثُ في روحِ المؤمنِ بالمهدويّةِ شحنةً كبيرةً من الأملِ، تمسحُ عنه نزعةَ التشاؤمِ تجاه تطلعاتِ البشريّةِ نحو المستقبلِ، فلا يصابُ بالإحباطِ واليأسِ والخمولِ... بل يكونُ إنسانًا حركيًّا يشاركُ في صناعةِ التاريخِ بمقاومةِ الظلمِ والدفاعِ عن الحقّ.

• الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز •

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638